مجلة الصحافة

العدد (8) | السنة الثالثة | شتاء 2018

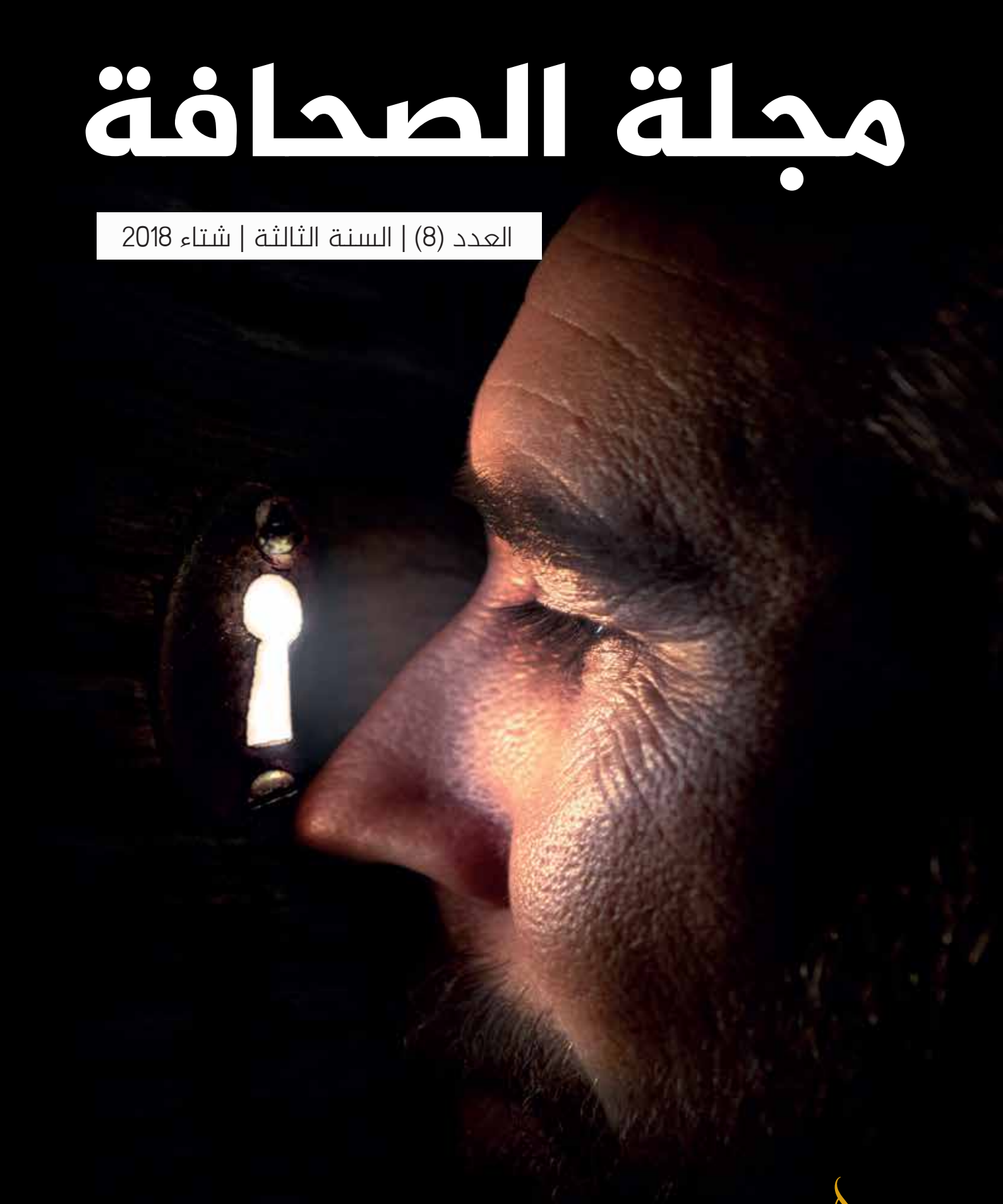

الصحافة الاستقصائية.. فتّش عن الصحفي

معهد
الجزيرة للإعلام

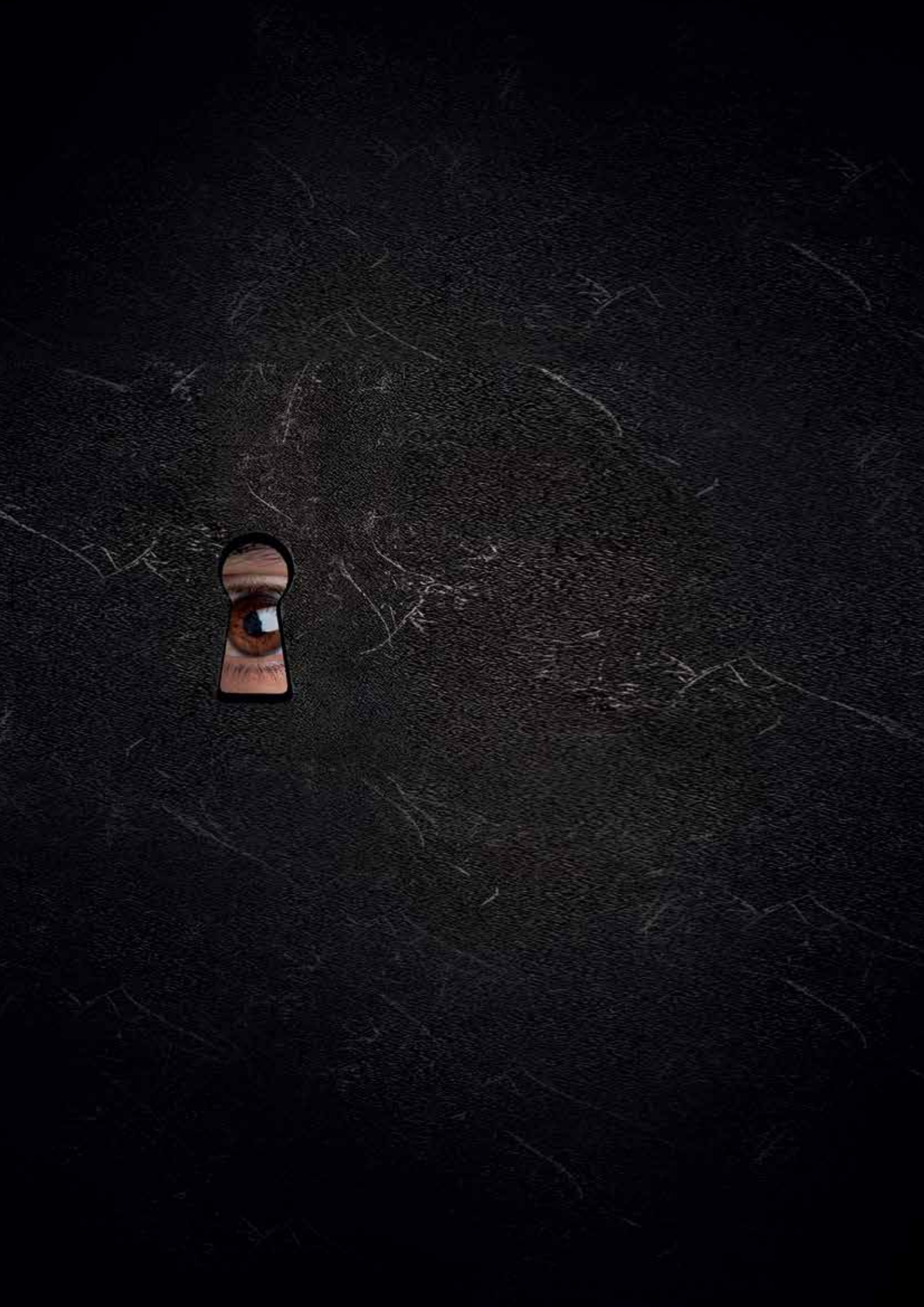

محتويات العدد

4 مشوار الاستقصاء يبدأ بكلمة
أسعد زلزلي

8 الصحافة الاستقصائية العربية.. النوايا وحدها لا تكفي
ياسر الزيات

14 «إنكيفادا» التونسي.. خلف الستارة شباك
ماجدة العرامي

18 «إنها مسألة بديهية يا عزيزي واطسون»
فيل ريس

26 تكلفة باهظة للصحافة الاستقصائية في المغرب
محمد لفويرس

34 التحقيق الاستقصائي.. الجو ماطر أم مشمس؟
ريتشارد كوكسون

40 أطراف النزاع السوري لا ترحب بالصحافة الاستقصائية
أحمد حاج حمدو

46 الصحافة الاستقصائية في عصر السوشيال ميديا
عمر مصطفى

54 ليبيا.. حظا أوفر في الاستقصاء
خلود الفلاح

58 تحليل الأرقام والبحث عن الحقيقة
محمد ناموس

64 غرف الأخبار..موسم الهرولة إلى بيت الطاعة الرقمي
عثمان كباشي

70 فيلم «غياب الحقد».. الصحفي أمام محكمة أخلاقية
عنان العجاوي

78 معاناة اللاجئين من عناوين الأخبار في السودان
حسام الدين صالح

86 الصحافة المحلية.. ديكٌ لا يبيض ذهبا
وصال الشيخ

92 الصورة الناطقة في الإطار الصامت
علاء بدارنة

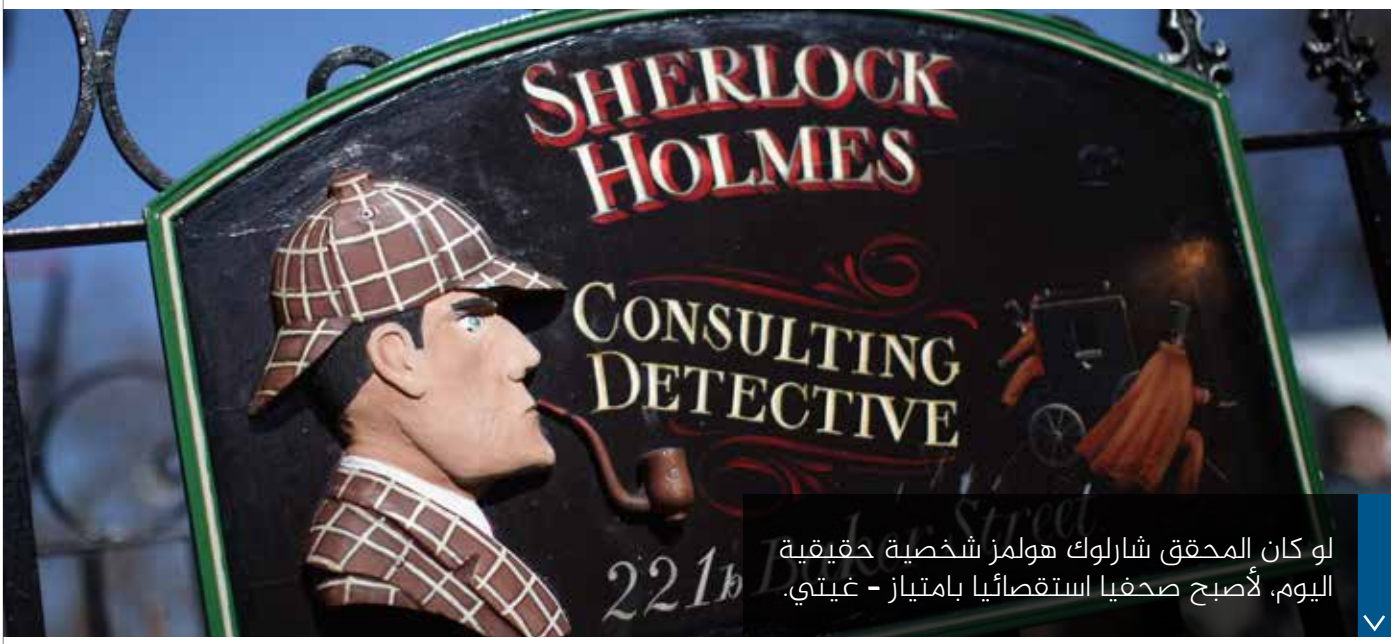

لو كان المحقق شارلوك هولمز شخصية حقيقية اليوم، لأصبح صحفيا استقصائيا بامتياز - غيتي.

كتّاب المجلة

أسعد زلزلي

صحفي استقصائي عراقي، متعاون مع قناة DW الألمانية. جائزة الضوء الساطع من منظمة الصحافة الاستقصائية العالمية عن «المشروع رقم (1)».

ياسر الزيات

صحفي مصري، ومدرب لأكثر من مساق صحفي. عمل في العديد من المؤسسات الصحفية العربية والدولية.

ماجدة العرامي

صحفية تونسية حاصلة على إجازة في الصحافة، ودبلوم في الصحافة الاستقصائية من مركز فري برس الهولندي.

فيل ريس

مدير التحقيقات في وحدة التحقيقات بشبكة الجزيرة. أنتج وأخرج العديد من الأفلام الوثائقية، وفازت أعماله بعدد من الجوائز.

محمد لفويرس

صحفي مغربي بقناة العيون الجهوية التابعة للشركة الوطنية للإذاعة والتلفزة المغربية. مدير مركز هارولد لاسويل للدراسات.

ريتشارد كوكسون

منتج ومُخرج مستقل للتقارير الاستقصائية. يعمل في بي بي سي والقناة الرابعة في المملكة المتحدة. مدرِّب صحافة استقصائية.

أحمد حاج حمدو

صحفي استقصائي سوري، خريج كلية الإعلام بجامعة دمشق. جائزة أفضل تحقيق استقصائي عربي لعام 2014 – مسابقة «شبكة أريج».

عمر مصطفى

صحفي مصري ساهم في إنشاء وتطوير وإدارة العديد من المواقع الصحفية الإلكترونية العربية. مدرّب في مجال الصحافة الرقمية.

خلود الفلاح

صحفية وشاعرة من ليبيا، محررة ثقافية في عدة مطبوعات.

محمد ناموس

صحفي سوري استقصائي، يعمل لصالح شبكة الشرق الأوسط للإرسال. مدير تحرير مجلة عين إنفو المتخصصة بصحافة البيانات.

عثمان كباشي

مشرف غرفة الأخبار بموقع الجزيرة نت. مدرب صحافة الإنترنت (الصحافة الإلكترونية) والتحرير الصحفي بمعهد الجزيرة للإعلام.

عنان العجاوي

صحفي فلسطيني، عمل محررا للأخبار في وكالة «شاشة نيوز». له مساهمات في العديد من المواقع الإعلامية العربية والفلسطينية.

حسام الدين صالح

صحفي سوداني، لديه مؤلَّف حول الإعلام التنموي في السودان. طالب دكتوراه بقسم الصحافة في جامعة الأناضول بتركيا.

وصال الشيخ

صحفية فلسطينية مقيمة في المغرب، درست الصحافة المكتوبة وعلم الاجتماع بجامعة بيرزيت، تكتب لعدة مواقع وجرائد فلسطينية ودولية.

علاء بدارنة

مصور صحفي فلسطيني، يعمل في الوكالة الأوروبية للتصوير. حائز على 27 جائزة عربية ودولية. مدرّب في مجال التصوير الصحفي.

حذاء سندريلا

لم تفلح زوجة أبيها في إقناع الجندي المرسل من القصر بأن سندريلا لا يمكن أن تكون صاحبة الحذاء.. كان الجندي ينفذ أمرا صارما منطلقا من فرضية وزير الملك «الأميرة هي صاحبة الحذاء أيًّا كانت». الدلائل كلها لم تكن تشير إلى تلك الفتاة المسكينة.. لم يرها الآخرون تخرج من البيت ولا تعود إليه.. المعلومة المتداولة بين الناس كانت تؤكد استحالة ذلك.. لكن تتبع الفرضية قاد إلى معرفة الحقيقة، ونسخَ دليلٌ واحد بقية الأدلة المضادة.

على ذكر المضادة، هل يمكن تسمية الصحافة الاستقصائية بالصحافة المضادة، لكون توجّهها مضادّا للفساد والتدليس والخداع في أي أمر يخص الناس؟

يقول مختصون في الصحافة الاستقصائية إنها وليدة المجتمعات الديمقراطية، لكن ذلك لا يعني تماما أنها بعيدة عن مجتمعاتنا العربية التي كانت فيها -منذ فترة قصيرة- جنينا لا تريد له الحكومات وأصحاب القرار الخروجَ من رحم الصحافة.

التغيرات التي شهدتها المنطقة العربية سمحت لهذا «الوليد» بالزحف قليلا في ميادينها، وأفرزت مبادرات مدعومة معظمها من الخارج، لأن الداخل معنيٌّ بالإجهاز على الوليد أو شلِّ حركته.

أصبحت الصحافة الاستقصائية اليوم في صحافتنا العربية ظاهرة يحاول كثير من الصحفيين الاقتراب منها، البعض يعتقد أنه يؤدي عملا استقصائيا إذا زاد من شحنة المؤثرات الكلامية والموسيقية، والبعض يصف تقريرا صحفيا بالتحقيق الاستقصائي وينجز واحدا أسبوعيا، والبعض يختم ما يظنّه تحقيقا بسؤالنا عن المسؤول، وكل الظن أنه سيخبرنا من المسؤول.

في حين يتجنبها آخرون خوفا من حقل الألغام الذي يتوقعون انفجاره في طريقهم، أو خشية التعثر في مسألة نقص التمويل، إضافة إلى تخوف الصحفيين من اقتحام الاستقصاء الذي يستهلك وقتا أطول لجمهور متلقّ يفترضون أنه يبحث عن المعلومة السريعة، في حين أن مهمّة الصحفي الاستقصائي تتطلب في جزء منها، بذلَ الكثير من الوقت والجهد والتجوال وتكذيب الرواية المتعارف عليها، للوصول إلى فتاة الحذاء ومحاسبة زوجة الأب الشريرة.

مجلة الصحافة

العدد (8) I السنة الثالثة I شتاء 2018
مجلة فصلية تصدر عن
معهد الجزيرة للإعلام
شبكة الجزيرة الإعلامية

المشرف العام
منير الدائمي

رئيس التحرير
منتصر مرعي

سكرتير التحرير
غدير أبو سنينة

مراجعة لغوية
الفضيل بن السعيد

تصميم
إدارة الإبداع في شبكة الجزيرة الإعلامية

الغلاف
لورينا خواريس ليسياغا

مجلة الصحافة
Aljazeera Journalism Review

موقع الإنترنت:
/http://institute.aljazeera.net/ar/ajr

تويتر:
@AJR_Arabic

فيسبوك:
www.facebook.com/
aljazeerajournalismreview

بريد المجلة الإلكتروني:
ajreditor@aljazeera.net

مشوار الاستقصاء يبدأ بكلمة

أسعد زلزلي

هيكل مدرسة وُضعت أساساتها قبل خمس سنوات، ورغم استلام المقاول للمبلغ ما زال الأساس على حاله.

كنتيجة أخرى للتحقيق، اعتُقل المقاول في العاصمة الأردنية عمان من قبل الإنتربول بعد الحكم الصادر من القضاء العراقي، وأعيد جزء من الأموال المسروقة إلى الحكومة، وأعفي سبعة مدراء عامّين.

في بلد طافح بالفساد، قد يخسر فيه الصحفي حياته لمجرد محاولة كسر الصمت.. لم يكن سهلا عليّ التفكير في خوض غمار الاستقصاء وتضمين كلماتي صرخات تشير بوضوح نحو الفاسدين وتدينهم، وتشخص بعض مظاهر الخراب والفساد. لكن المحاولة بحد ذاتها تمثل تحديا لا يقبل القسمة على التقاعس والصمت من أجل قضاء مشوار العمل الصحفي تبعا لروتين الصحافة المتحزبة اليومية.

في مشواري الصحفي كنت كثيرا ما أتطلع إلى حكايات الصحفي الاستقصائي يسري فوده، التي عشت لحظاتها كثيرا حتى قبل كل التحولات التي مرت وعصفت بأوضاع بلادي.. وبعد كل حلقة من حلقات «سري للغاية» كان الطموح والشغف يعتريان أحلامي لما كنت أرى من جرأة في الطرح وابتعاد عن الخوف. منذ العام 2004 خطّت أولى كلماتي الصحفية مشوارها مع إحدى الإذاعات المحلية في العراق، ومضت تتدرج يوما تلو الآخر في محطة بعد محطة، أتنقل فيها بين قنوات محلية أغلبها حمل سمة الحزبية وتجنب الحديث عن أي مفردة استقصائية.

أولى المحاولات الفعلية التي سُجلت لي كانت تقريرا عن المتسولين في العراق وعصابات الاستغلال التي تقف وراءهم عام 2012.

من هناك وجدت أن المشوار لا بد أن يمضي قدما بين طيات صحافة أحقق معها حلمي الأول بين سطور صحافة اللاخوف وكشف المستور في وطني العربي الذي لا يكشف فيه شيء إلا بشق الأنفس. بعدها اتجهت إلى التقصي عن واقع انتخابات لنقابة الفنانين جرت في بغداد وامتلأت بالمخالفات والغموض. وما إن أشرت إلى المتسبب بها، حتى أصبحت ملاحقا بالاتهامات والتهديدات.

قررت لاحقا البحث في عالم تجارة الأعضاء البشرية، وكان أول خطوط البحث التي قادتني إلى الفكرة هو ما تداول في محل الحلاقة بين الشباب عن فتاة باعت كليتها لدفع قسط جامعتها.. استفزني الأمر وسوء الحال الذي وصلت به البلاد إلى هذا المستوى وغياب الرادعين الأخلاقي والقانوني، حينها اكتشفت أن الاستقصاء لا يتوقف على مصدر بحد عينه؛ فكل كلمة أو أي تجمع قد يكون مصدرا بعد التدقيق لأساس فكرة استقصائية. رفضت الوسيلة التي أعمل معها أي حديث في الموضوع أو القبول بإجراء تحقيق في هذا الشأن، لا سيما أن البحث احتوى أسماء شخصيات طبية معروفة.

لم أستسلم حتى وجدت في أحد الأيام إعلانا للتقدُّم لورشة استقصائية تعلِّم أساسيات الاستقصاء، وتمول إنتاج التحقيق بعدها، كما تتكفل بنشره. تقدّمت للمشاركة بما لدي من فكرة وبحث على أمل أن يرى تحقيقي الاستقصائي النور.

أُختِرتُ مع 12 صحفيا من بين مئات المتقدمين، استنادا إلى الفكرة التي طرحتُها وطريقة البحث. وهكذا، التحقت بالورشة ووجدت فيها كل الأدوات التي تؤهل ما لديّ من طاقة استقصائية ناقمة على واقع بلدي الذي نخره الفساد من كل جانب. عدتُ من الورشة محملا بكل ما حصلت عليه، وانطلقت رحلتي مع مشوار الاستقصاء في حينها عام 2015.

المشروع رقم واحد

واقع مدرسة الطالبين بعد أن هُدمت في بداية المشروع لبناء مدرسة حديثة مكانها قبل خمس سنوات، لم تُبنَ المدرسة. وبعد سنوات من المعاناة، تبرَّع البعض بكرافانات ليدرس بها الطلاب.

كان بحثي الدائم عن كل الملفات المتعلقة بالفساد والخراب يقودني من فكرة إلى أخرى، حتى استوقفني في أحد الأيام تقرير أجريته عن واقع التعليم في العراق، وزرت خلاله بعض المدارس. ما صدمني هو وجود المدارس الطينية قائمة حتى هذا العام، رغم كل مليارات الموازنات الحكومية، وذهلت من رؤية البؤس البادي على وجوه الأطفال وهم يفترشون الأرض ببردها القارس وحرِّها اللاذع. واقع مأساوي أن تجد أطفال بلدك دون حق التعليم الصحيح والمعاناة التي حرمتهم من حقوقهم. اطلعت على الإحصائيات المتوفرة في وزارة التخطيط والتربية لأجد أن هناك ما بين 1000 إلى 2000 مدرسة طينية في البلاد، وأن العراق بحاجة لأكثر من 20 ألف بناية مدرسية، وأن أكثر من مليون طفل متسرب من المدارس ولا يلتحق بالتعليم لأسباب عدة أبرزها عدم وجود مدرسة قريبة على محل سكناه. كما أن العراق الذي كان في سبعينيات القرن الماضي البلد العربي الوحيد الخالي من الأمية، أصبحت فيه نسبة الأمية اليوم تتجاوز 20٪. كل تلك الإحصائيات كانت مهمة لبداية البحث والتحقيق.

من هنا انطلقت للبحث أكثر وطرحت الفكرة على شبكة أريج والصحفي يسري فوده الذي أعلن عن ورشة بإشرافه في «أريج».. كانت الفكرة مميزة، فهي تعالج واقع التعليم وتظهر أساس تخلفه وما نخره من فساد.

أوصلني البحث إلى الكثير من الخيوط والمصادر الممكنة وغير الممكنة، والأهم أني عمدتُ إلى عملية توثيق تمكنني من حبك خيوط التحقيق، وإدانة من ثبت بالبحث تورُّطه في سرقة حق أطفال العراق في الحصول على تعليم جيد.
كان لا بد أن أوثق كل مرحلة وكل خطوة مر بها البحث، على الأقل بمستند أو وثيقة تثبت صحة ما ذهبتُ إليه.

زعمتُ في التحقيق أن هناك مشروعا أطلقته الدولة عام 2011 لبناء أكثر من 1700 مدرسة في عموم العراق، وخصصت له ملايين الدولارات، وبعد خمس سنوات اختفت الأموال، والأسوأ من ذلك أن المشروع عمد إلى تهديم مئات المدارس بحجة إعادة بنائها، لكنها تحولت إلى أرض جرداء يتحسر عليها طلابها حتى اليوم.

أبرز المقاولات في هذا المشروع كانت لرجل متنفذ على صلة وثيقة بالكثير من الأحزاب. أودِعَ أكثر من 200 مليون دولار كدفعة 60٪ لهذا المقاول، شرط عدم سحبها من المصرف الذي أودعت فيه إلا بحضور الطرف الحكومي والمقاول. وثقتُ كل ذلك بالمستندات والعقود التي أثبتّ من خلالها توقيع وزير التربية وممثل الشركتين التي يملكهما المقاول، ثم وثقت عملية اختفاء الأموال ورفع الكتب الرسمية إلى الحكومة من قبل بعض المفتشين.

أثبتّ أولا عدم صلاحية إعطاء

مصرف دار السلام الذي أودعت فيه الأموال من قبل وزارة التربية على ألّا تُسلَّم للمقاول إلا بحضور جميع الأطراف. كشف التحقيق أن أكثر من 200 مليون دولار فيه اختفت وأن رئيس مجلس إدارته هو نفسه والد المقاول.

الدفعة الأولى بنسبة تبلغ 60٪ إلا عن طريق إدخال شريك حكومي، وهو ما قام به المقاول للحصول على هذا الحجم من الأموال. وهنا تبادر إلى ذهني إثبات كيفية إمكان اختفاء الأموال رغم شرط حضور الجانب الحكومي، وبعد البحث لأشهر وصلنا إلى وثيقة حكومية تثبت أن صاحب المصرف هو نفسه والد المقاول.

الخطوة الثانية كانت التأكيد.. وهنا بحثتُ أكثر عن مصادر سرية توفر لي ما أبحث عنه، وبعد البحث وصلت إلى وثائق سرية صادرة من البنك المركزي وهيئة النزاهة التي رفضت مطلقا التصريح لي أو مساعدتي، لكنني حصلت على وثائق رسمية منها تؤكد أن ذلك المقاول هو من سرق الأموال. ثم وصلت إلى وثائق رسمية أخرى تؤكد أن نسب الإنجاز في المشروع لم تتجاوز 15٪ من المشروع بأكمله.

حاولت البحث عن المقاول لمنحه حق الرد، ومن أجل أن يكون التحقيق مهنيا ومتكاملا، وهنا تمكنت من الحصول حتى على مستمسكاته الشخصية وعقود شركاته، لكن الرجل كان أشبه بالشبح.. لا صورة ولا عنوان؛ فكل عنوان أذهب إليه أجده قد تركه، حتى انتقلت إلى الأردن للبحث عنه هناك، حيث توصلت إلى عنوانه عبر الإنترنت، لكن لم يكن له أثر. وبعد محاولات التقيت بممثله القانوني وكان يسكن عمّان، وتم الاتفاق على تسجيل مكالمة له بعد تعذر حضوره. وخلال الحوار وثقت اعترافه بأنهم أخذوا الأموال،

على أطلال مدرسته القديمة التي هُدمت قبل خمس سنوات في المشروع لتُبنى أخرى مكانها، يتأمل الطفل كيف كان المشروع سبب حرمانه من الدراسة؛ إذ نُقل إلى مدرسة بعيدة، وفي الطريق تعرض لحادث سيارة حرمه من التعليم لبقية حياته.

لاقيا باللوم على جهات أخرى، وطالبا سؤال المصرف الذي أودعت فيه الأموال عن كيفية سحبها دون وجود الطرف الحكومي.

لم أترك جهة إلا ذهبت إليها واستمعت لشهادات الجميع في وزارة التخطيط ووزارة التربية ووزارة الإعمار ووزارة الصناعة، والحالات من أطفال المدارس الذين تضرروا بسبب ذلك المشروع، وتنقلت بين أكثر من محافظة لأظهر واقع أطلال المدارس التي شيدت لتبقى على شكل هياكل تذكّر بحجم الهدر والفساد.

بعد شهر من عرض التحقيق على قناة «دويتشه فيله» (DW) في برنامج «السلطة الخامسة» مع يسري فوده، تحرك ملف التحقيق في المشروع، وأخيرا أصدر القضاء حكما بالسجن سبع سنوات على المقاول ومصادرة أمواله المنقولة وغير المنقولة. كان ذلك الحكم في معاقبة الجناة أهم الجوائز التي حصدتها في مشوار حياتي، لأن إرجاع الحق وكشف المتورطين هما أساس صحافة الاستقصاء التي أحلم بها وأساس الصحافة التي أحلم بها، صحافة التغيير، وخاصة في بلداننا العربية التي تعاني مشكلة أزلية تتمثل في الفساد الذي نشأ من مخلفاته «الإرهاب» نتيجة الظلم والفقر والجوع والاضطهاد.

لابد من التأكيد أن الخوض في غمار الاستقصاء جاذب للمخاطر، لهذا عليك كصحفي أن تؤمن بفكرتك أولا لتتمكن بشجاعة من إنجازها.

تعرضتُ لمحاولة اغتيال بإطلاق النار على مركبتي وكدت أفقد حياتي، ناهيك عن كمّ التهديدات التي تعرضت لها والتي أصبحت روتينا من بيروقراطية الحياة اليومية مع الصحافة، لكن وكما قلتها سابقا وأجيب عنها في كل مرة: هذا عملي وعليّ أن أكون أهلا له.

وكنتيجة أخرى للتحقيق، اعتُقل المقاول في العاصمة الأردنية من قبل الإنتربول بعد الحكم الصادر من القضاء العراقي، بحسب ما علمته خلال كتابتي هذا التقرير في ديسمبر/كانون الأول 2017.

أعيد جزء من الأموال المسروقة إلى الحكومة وأُعفي سبعة مدراء عامّين وحقق التحقيق معظم أهدافه، لكن أطفال العراق ما زالوا يعانون الكثير من واقعهم المأساوي في مدارس طينية وحديدية، عدا عن أطفال المخيمات من النازحين، وهو ما يدفعني إلى البقاء في كلمة الاستقصاء والمضي بمشروعها الساعي إلى خلق صحافة رادعة ورقابية حقيقية تساهم في خلاص المجتمع العربي من كل آفاته الأزلية، وأولها وأهمها الفساد.

حصل التحقيق على جائزة «سمير قصير 2017» في لبنان عن فئة المرئي، وترشح ضمن قائمة الأفلام الثلاثة النهائية لجائزة «ديغ» (DIG) الإيطالية العالمية في العام نفسه وحصل على جائزة لجنة التحكيم. كما نال جائزة «الضوء الساطع» في جوهانسبرغ التي تنظمها الشبكة الدولية للصحافة الاستقصائية كل عامين، ولأول مرة يحصل عربي على هذه الجائزة العالمية منذ تأسيسها.

حصل تحقيق «المشروع رقم 1» على جائزة «الضوء الساطع» من منظمة الصحافة الاستقصائية العالمية.

الصحافة الاستقصائية العربية.. النوايا وحدها لا تكفي

ياسر الزيات

بالنسبة لكثير من الصحفيين في بداياتهم، تعتبر الصحافة الاستقصائية طريقا سريعا وبابا واسعا لتحقيق النجاح، الأمر الذي يجعل بعضهم يقرر المضي في الطريق دون أن يمتلك الأدوات الكافية، ودون أن يدرك أن النوايا وحدها لا تكفي.

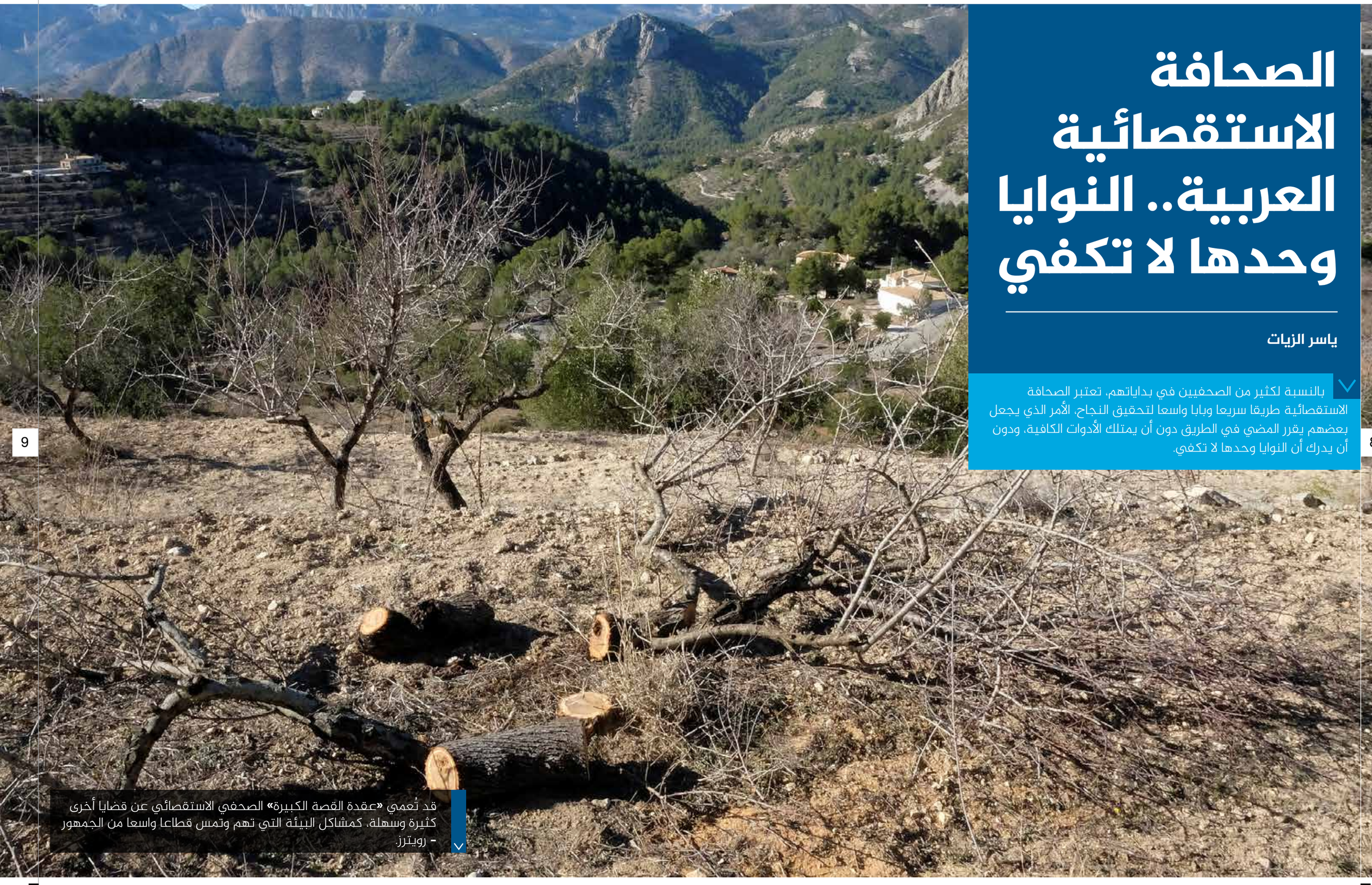

قد تُعمي «عقدة القصة الكبيرة» الصحفي الاستقصائي عن قضايا أخرى كثيرة وسهلة، كمشاكل البيئة التي تهم وتمس قطاعا واسعا من الجمهور - رويترز.

تبدو الصحافة الاستقصائية شديدة الجاذبية للصحفيين الشبان تحديدا لأنها تحقق نوعا من المجد الشخصي، لكن الأمر يختلط على الكثير منهم عندما يعتقد أن الصحافة الاستقصائية هي صحافة المغامرة والمخاطرة. هذه الصورة النمطية واحد من تحديات كثيرة تواجهها الصحافة الاستقصائية في العالم العربي، وهي صورة تحتاج إلى التغيير سريعا، بأن يتلقى الصحفيون الراغبون في دخول هذا المجال مزيدا من التدريب على هذا النوع الصعب -لكن المؤثر- من الصحافة.

بالنسبة لكثير من الصحفيين في بداياتهم، تعتبر الصحافة الاستقصائية طريقا سريعا وبابا واسعا لتحقيق النجاح، الأمر الذي يجعل بعضهم يقرر المضي في الطريق دون أن يمتلك الأدوات الكافية، ويتسلح بالأسلحة اللازمة لتحقيق هدفه.

لا تعمل الصحافة الاستقصائية بالنيات، ولكن بتبني منهج في البحث والتقصي من أجل إثبات كل حقيقة يرغب الصحفي في إثباتها. كما أن هذه العملية يجب أن تتم بأقل قدر من المخاطرة، سواء بالنسبة للصحفي أو لمصادره، إضافة إلى الالتزام الصارم بالمعايير المهنية والأخلاقية. وعندما يختار صحفي أن يدخل هذا المجال من الصحافة، عليه أن يعرف أنه دخل المجال الذي قد يؤدي به إلى الشهرة أحيانا، أو إلى صناعة الأعداء في أحيان أخرى كثيرة.

مخاطر ومزيد من المخاطر!

يعمل الصحفي الاستقصائي من أجل تغيير العالم إلى الأفضل، يحركه غضب ما تجاه أوضاع سلبية في محيطه يتقاعس مسؤولون أو نافذون عن معالجتها، أو يتواطؤون من أجل استمرارها وبقائها طي الكتمان. هنا يكمن الفارق بين الصحافة التقليدية التي «تغطي» ما يحدث وتنقله للجمهور، وبين الصحافة الاستقصائية التي «تكشف» أمورا تحدث قد لا يعرف عنها الجمهور كثيرا، وترغب أطراف في عدم كشفها لأن في هذا الكشف تهديدا لمصالحها. وهذه الأطراف تتضمن -على الأغلب- مسؤولين حكوميين متقاعسين أو متواطئين، أو رجال أعمال فاسدين، أو أعضاء في مجموعات جريمة منظمة، الأمر الذي لا يجعل مهمة الصحفي الاستقصائي صعبة فحسب، وإنما محفوفة بالكثير من المخاطر أيضا.

تسعى الأطراف المتضررة من كشف الحقائق -بكل الأشكال- إلى إعاقة عملية التقصي حفاظا على مصالحها، وتستخدم كل الوسائل التي تمكّنها من ذلك، بدءا من حجب المعلومات، ووصولا إلى تهديد الأطراف الفاعلة في التقصي، أو الإضرار الفعلي بها في بعض الأحيان.

وتفرض هذه التحديات التي تصل إلى درجة التهديدات أحيانا؛ أن يعي الصحفي الاستقصائي أبعاد كل خطوة يخطوها، وأن يدرسها جيدا، قبل أن يتورط في مخاطرة غير مبررة قد تقوده هو أو مصادره إلى متاعب غير مرغوب فيها.

عقدة القصة الكبيرة

بعد أن يتلقى الصحفيون تدريبات على منهج التقصي تؤهلهم للعمل وفق قواعد وخطوات علمية، وتحررهم من الصورة النمطية حول صحافة المغامرة والمخاطرة، يقع كثير منهم في ما يمكن تسميته «فخ القصة الكبيرة»، إذ يرغب الصحفي عادة في تفجير قضية كبيرة تحقق له نجاحا مدويا، وتجعل من اسمه علامة في عالم الصحافة، وهذا أمر مفهوم. لكن هذه الرغبة -المفهومة والمبررة- في تحقيق النجاح قد تقف حجر عثرة أمام نجاح الصحفي الاستقصائي، إذ تبطئ خطواته، وتجعله أسيرا لانتظار ما يتصور أنه قنبلة صحفية ستحقق له المجد.

يعتقد كثير من الصحفيين الاستقصائيين أن قضايا الفساد السياسي والمالي، وقضايا تعقب الأموال، وقضايا الجريمة المنظمة؛ هي وحدها التي يمكن أن تحقق له نجاحا، وتجعل اسمه كبيرا في عالم الصحافة عموما، والصحافة الاستقصائية خصوصا. ولكن واقع الأمر أن «عقدة القصة الكبيرة» هذه قد تعمي الصحفي الاستقصائي عن قضايا أخرى كثيرة وسهلة، ويمكنها أن تحدث أثرا أقوى، مثل قضايا الصحة والبيئة والغذاء التي تهم قطاعا واسعا من الجمهور، وتمسه يوميا ومباشرة.

صحيح أن الجمهور يهتم بالقضايا السياسية وبالأمور التي تتعلق بكشف ممارسات أشخاص مشهورين ومؤثرين في المجتمع، لكن الجمهور نفسه سيهتم بالأمور التي يتحقق فيها عامل القرب الشخصي.. «هذا يحدث معي، أو مع أشخاص أعرفهم».

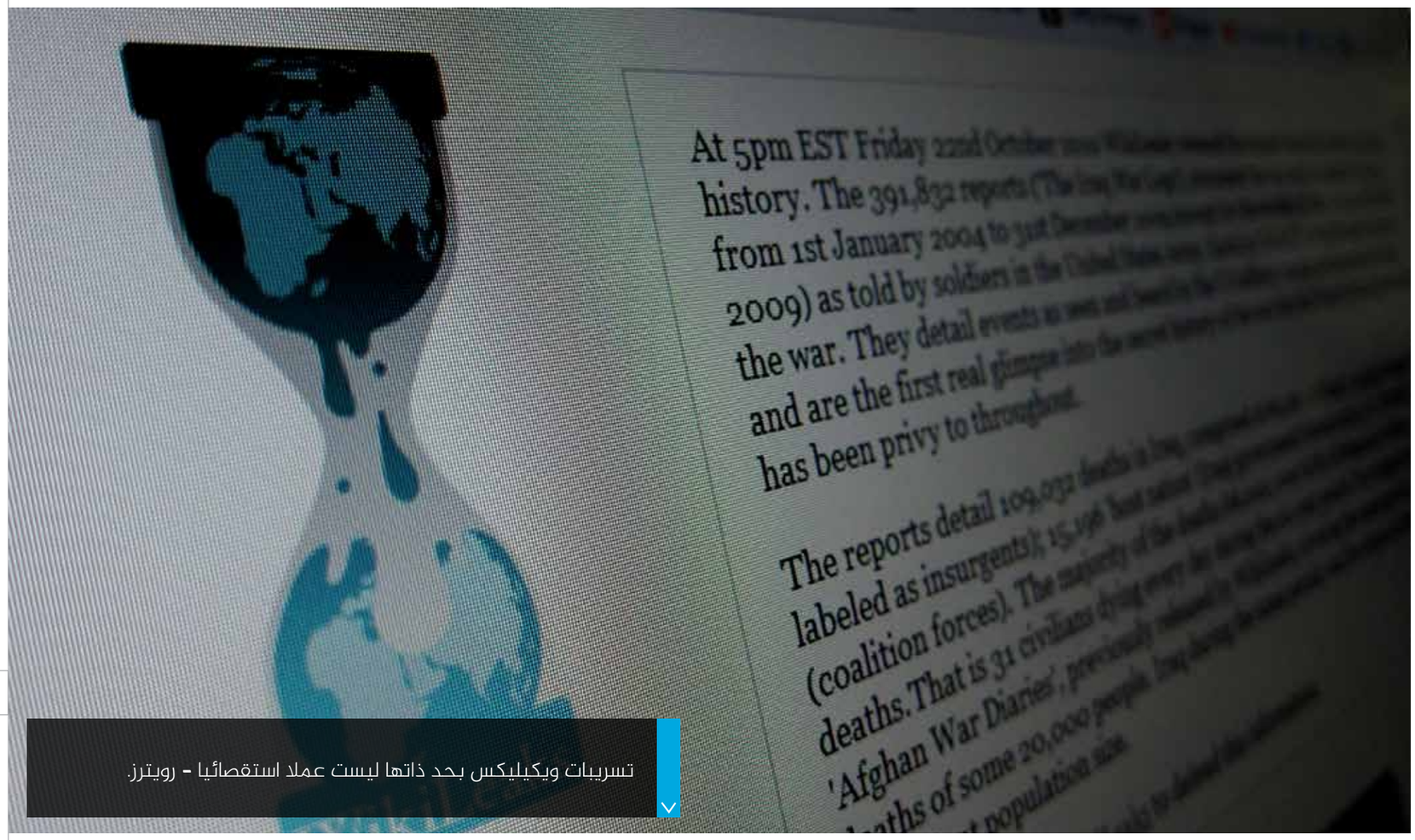

تسريبات ويكيليكس بحد ذاتها ليست عملا استقصائيا - رويترز.

قد يواجه الصحفي تحديات داخل غرف التحرير من قبل زملائه الذين يعتقدون أنه لا يعمل. الصورة من غرفة الأخبار في صحيفة الواشنطن بوست. تصوير: غاري كاميرون - رويترز.

صحافة «التسريبات»

الصحافة الاستقصائية ليست هي صحافة التسريبات كما يعتقد الكثير من الصحفيين بالطبع. فتسريبات «ويكيليكس" ليست صحافة استقصائية، ولا «وثائق بنما».. هذه الوثائق التي نحصل عليها بشكل أو بآخر، هي مجرد بداية لتحقيق استقصائي، وليست تحقيقا استقصائيا في ذاتها. عندما يحصل الصحفي الاستقصائي على وثيقة، فإنه يمر بعملية مركبة للتحقق من صحتها، قبل أن يبدأ في تحويلها إلى قصة كبيرة من خلال عملية تقصٍّ قد تطول، لأنها قد تتطلب الحصول على المزيد من الوثائق، ومقابلة أو مواجهة العديد من المصادر المرتبطة بها.

في «وثائق بنما»، مثلا، وكما هو الحال مع تسريبات «ويكيليكس"، عكفت فرق كاملة من الصحفيين الاستقصائيين على دراسة ما توفر من وثائق وبرقيات لتحويلها إلى قصص صحفية استقصائية مبنية على فرضيات، وإثبات الفرضيات النابعة منها بشكل لا يقبل الشك. ولا يكفي أبدا أن يحصل الصحفي على وثيقة رسمية ليفترض صحتها، لأنها قد تكون الجزء الظاهر فقط من جبل الوثائق المخفي، أو ربما تكون فخا يجعل روابط القصة ضعيفة ومفككة. فإذا كانت هناك قصة قوية ومهمة، لكنها تحتوي على رابط ضعيف واحد، فهذا يعني أن القصة كلها قابلة للهدم، وهناك دائما أطراف تسعى لذلك، وهي الأطراف ذاتها التي تسعى لعدم كشف مسؤوليتها عنها، أو تورطها فيها.

غريب في غرفة التحرير

يواجه الصحفي الاستقصائي بيئة عمل معادية خارج غرفة التحرير، لكنه قد يواجه بيئة عمل محبطة داخلها أحيانا. ولا يستوعب كثير من مديري التحرير أن يقضي صحفي ستة أشهر -في المتوسط- في إنجاز قصة واحدة، بينما كان يمكن أن ينجز قصتين خبريتين يوميا، بإجمالي 360 قصة تقريبا في الأشهر الستة.

يبدو الصحفي الاستقصائي -أحيانا- غريبا في غرفة التحرير، ليس فقط بالنسبة لبعض رؤسائه الذين قد لا يعلمون شيئا عن القصة التي يعمل عليها، ولكن أيضا بالنسبة لزملائه الذين يرون شخصا منكبا على حاسوبه الخاص لأوقات طويلة، بدون أن يروا له شيئا منشورا لأشهر. لكن الأمر في السنوات الأخيرة يبدو أفضل بعدما انتشرت ثقافة الصحافة الاستقصائية في غرف التحرير، وبات الصحفيون يدركون أن العمل الصحفي الجيد يجري طبخه على نار هادئة. غير أن هذا التحسن لم يجعل بيئة العمل مثالية أو مرحبة تماما، لأن كثيرا من الناشرين ورؤساء التحرير في العالم العربي لا يقدر هذا النوع من الصحافة حق قدره، ويعتبره نوعا مكلفا -من وجهة نظره- وبلا طائل، مفضلا مساهمة كل الصحفيين في دوران عجلة الأخبار التي لا تتوقف.

تحدي المستقبل

لا تمثل الصورة النمطية عن الصحفي الاستقصائي، أو نقص المعلومات، أو حجبها في العالم العربي، وعدم وجود تشريعات تتيح حرية تدفق المعلومات في الغالبية العظمى من الدول العربية، أو العمل في بيئة معادية؛ جميع التحديات التي تقف أمام الصحافة الاستقصائية، فالتطورات التقنية في سرد القصص تعتبر تحديا جديدا وجديا لا يمكن النظر إليه باستهانة. فما معنى أن تكون لديك قصة مهمة، قضيت وقتا كبيرا في إنجازها، وبذلت مجهودا فائقا في عملية البحث والتحقق والتقصي، ولكنك ترويها بشكل لا يجعلها تصل إلى الجمهور، إما لأنك تستخدم الوسيط غير المناسب، أو طريقة السرد غير المناسبة؟

لا يكفي الصحفي الاستقصائي الآن أن يطور مهاراته في البحث والتحقق والتقصي، وإنما بات عليه أن يطور مهاراته في سرد القصة أيضا، وأن يكون واعيا بالسرد القصصي الرقمي، وواعيا بكيفية سرد قصصه على منصات متقاطعة الوسائط. هذا الأمر يتطلب مزيدا من بناء القدرات في مجالات قد يغلب عليها الجانب التقني، فالأمور التقنية لم تعد منفصلة عن أساليب السرد في الصحافة الحديثة بوسائطها المختلفة.

«إنكيفادا» التونسي.. خلف الستارة شباك

ماجدة العرامي

أولى مشكلات الصحافة الاستقصائية في تونس -بحسب الخضراوي- ليست تابعة من القصور في التشريعات ولا غياب القوانين، بل من الصحفيين الذين يعتمدون طرقا أخرى للوصول إلى المعلومة، غافلين عن قانون النفاذ إلى المعلومة.

أظهرت مرحلة ما بعد سقوط نظام بن علي تعطش الشعب التونسي إلى إعلام ينبش في عمق الحقيقة ليظهرها على السطح، فلم تكن ثورة 14 يناير/كانون الثاني فقط نقطة فاصلة في تاريخ الشعب بالانقلاب على سنين مظالم الحاكم ومفاسده، وإنما مثلت أيضا نقطة انقلاب على المفاهيم القديمة للصحافة، التي فرضها نظامان متعاقبان: النظام البورقيبي ونظام بن علي.

حقبة جديدة أفرزت نماذج وأعراف استقصاء، تعززت بمجهودات شابة كنموذج «إنكيفادا»، وهي مجلة إلكترونية تاريخ ظهورها قصير، لكن سِجلّ عملها الاستقصائي وتحقيقاتها المدعومة بالوثائق والمصادر عُدت ديناميكية وواسعة في بيئة عمل ضيقة.

«إنكيفادا» ورحلة البحث عن الحقائق

اختيرت «إنكيفادا» للمساهمة في تحقيق «وثائق بنما»، وهو تحقيق برعاية دولية قدم براهين للرأي العام وأقام الحجة على أسماء ساسة وشخصيات اعتبارية ذكرت أسماؤها ضمن قائمة المتهربين من الضرائب. وقد نشرت «إنكيفادا» الجانب المتعلق بتونس، مما فتح جبهة تحدّ كبيرة أمام صحفيِّيها وأظهر الحاجة الملحة إلى إعادة إنتاج صناعة صحفية تضع مصلحة الرأي العام فوق كل اعتبار، حسب ما أخبرنا مدير تحرير موقعها وليد الماجري وقال «عندما وقع اختيارنا لنشر وثائق بنما وكشف الفساد، كان عددنا يقارب 380 صحفيا من كافة دول العالم، وكان علينا أن نواصل ولا نفر من المعركة بذريعة خشيتنا من العقبات والعواقب.. عملنا على خدمة الصالح العام».

وحول الهجمة الإعلامية التي واجهها صحفيو «إنكيفادا» يقول الماجري «لم تكن سوى تصفية حسابات من أذرع إعلامية سولت لها نفسها أن تشكك في مهنيتنا؛ فقط لكسر ما نشر آنذاك، كما حاولت أن تنتصر لأسماء تربطها بها علاقة تُثبِتُ حجتنا ضدها».

أما بخصوص مدونة السلوك المعتمدة في ظل بيئة مثل تونس، فيؤكد الماجري أنه «حينما تكون لوسيلة الإعلام ترسانة أخلاقية تقتدي بها، لا يمكن أن تسقط في فخ المساءلة من أي كان.. نحن

جانب من تحقيقات «إنكيفادا».

ناجي البغوري، رئيس نقابة الصحفيين التونسيين، يكرِّم فريق صحفيي إنكيفادا، 2017.

نعتمد الأخلاق الكونية الإنسانية الشاملة.. نقدم تحقيقاتنا بكل دقة ووضوح، لا نشتم ولا نزوِّر الحقائق.. هذا هو حجر الأساس في العمل الاستقصائي».

ماذا تغير بعد التحقيق؟

قد لا يرضى الصحفي عن عمله إلا إذا سأل نفسه هذا السؤال، فلا ريب أن التحقيق المثالي هو الذي يحدث رجّة في الرأي العام، أو ينجح في تغيير القوانين، أو ينبه إلى أن هناك شبهة ما، فيدفع بأصحاب القرار إلى أن يتخذوا إجراء بشأنه.

ويدعم هذا الرأي مارك هانتر أستاذ الصحافة الاستقصائية بجامعة باريس وأحد مؤسسي شبكة الصحافة الاستقصائية العالمية، إذ يقول «في العمل اليومي نعكس كصحفيين واقع المجتمع، وفي العمل الاستقصائي نهدف إلى تغيير واقع المجتمع».

مؤسس موقع «إنكيفادا» مالك الخضراوي يعي جيدا هذه الفكرة، فتحقيقه «وثائق بنما.. رحلة في العالم الخفي للشركات غير المقيمة» الذي أثار جدلا واسعا وصار حديث الرأي العام ووسائل الإعلام، قاد إلى فتح تحقيقات رسمية تبحث في منابع الفساد بناء على المعلومات المقدمة في متنه، باعتباره قد أزاح الستار عن تورط أسماء شخصيات تونسية سياسية في أعمال غير قانونية، مثل التهرب الضريبي وتبييض الأموال عبر شركات عابرة للحدود، مقدّما الأدلة على ذلك.

وحول مسألة القوانين الموضوعة قال الخضراوي إن أولى مشكلات الصحافة الاستقصائية ليست نابعة من القصور في التشريعات ولا غياب القوانين، بل من الصحفيين أنفسهم الذين يعتمدون طرقا أخرى للوصول إلى المعلومة، غافلين عن قانون النفاذ إلى المعلومة.

ويشير إلى أن «الصحفي سيقدّم عمله الاستقصائي بأريحية وثقة إن كان عارفا بحقوقه التي يكفلها القانون، كحق النفاذ إلى المعلومة وحق حماية المبلِّغين أو المصادر، أما أن يسلك طرقا ملتوية للحصول على المعلومة فهذا خطأ الصحفي وليس التشريعات.. وأبرز مثال على ذلك أننا عند نشرنا تحقيق وثائق بنما، دُعينا إلى الإدلاء بشهادتنا عند الهيكل القضائي كشهود لا كمتهمين كما خال البعض.. طُلب منا أن نذكر مصدرا واعتذرنا عن ذلك وفق قانون حماية المصادر الشخصية، فوجدنا تفهما واقتناعا من الهيكل القضائي».

أثبتت تجربة «إنكيفادا» كفاءتها وأصبحت الاسم الاستقصائي الأبرز في تونس بسبب كمّ وجودة التحقيقات التي

أنجزتها، مثل تحقيق عميق يكشف أسرار تهريب الأسلحة في تونس ومن يقف خلفها، وتحقيق «الاعتداءات الجنسية في أفريقيا الوسطى.. بصمات الجنود الفرنسيين»، وغيرهما.

ما يهمُّ نموذج «إنكيفادا» الشاب -وفق مؤسسه- أن يدحض الخوف والرهبة لدى البعض من دخول مجال الصحافة الاستقصائية، بتقديم الدعم المعنوي وتوجيه تنظيم دورات تدريبية وتعليمية لخلق جيل صحفي يراهن على نجاح العمل الاستقصائي تونسيا وعربيا».

استقصائي يوقع بـ«قناص الثورة»

تناقل المواطنون التونسيون أيام الثورة، وبعد سقوط عدد من المتظاهرين، عبارة غامضة شرطيّا قُتل بذات النوع من العيار الذي سقط به ضحايا آخرون، وكان القاتل عسكريا في الجيش الوطني.

في حوارنا معه، حكى قيس أن الطريقة المثلى للوصول إلى الحقيقة هي عدم الاكتفاء بالمتاح والظاهر، فخلف كل سطح هناك عمق وخلف كل ستار شباك يفتح على الحقيقة.. «الشرط الأهم لينجح التحقيق هو استقلال الصحفي

موقع إنكيفادا يحصل على جائزة أفضل تحقيق استقصائي حول الحوكمة الرشيدة ومكافحة الفساد، من قبل الهيئة الوطنية لمكافحة الفساد، في المؤتمر الدولي الثاني لمكافحة الفساد تاريخ 09 ديسمبر/كانون الأول 2017.

الصحفيين لخوضه بلا تردد. يقول الخضراوي «لدينا دور تحقيقي، أي أننا نغوص في أعماق الحقيقة ونقدمها للعموم بلا شائبة أو تشكيك. ولدينا دور تثقيفي، نفتح أعين العامة على قضايا ونفك شيفرتها ليفهمها. بالإضافة إلى الدور التوجيهي من خلال هي «قنّاص الثورة»، إذ كان المتظاهرون يسقطون بأياد خفية مجهولة الجهة، وبقي الغموض يلف القصة، بل كان مصيرها التكذيب أو النسيان. الصحفي في موقع «إنكيفادا» قيس زريبة تتبع مراحل القصة معتمدا على نموذج أحد الضحايا، حتى توصَّل إلى أن عن أي سلطة، واستقلال الإدارة عن التحرير.. المناخ القانوني يسمح نسبيا بممارسة الصحافة الاستقصائية، لكن لا بد من إيمان الصحفي بثقافة الاستقصاء.. الباب مفتوح لهذه الممارسة في فترة تعد سابقة في تاريخ الصحافة بتونس».

«إنها مسألة بديهية يا عزيزي واطسون»

فيل ريس

في رواية «كلب آل باسكرفيل»، وصف واطسون عقل هولمز بـأنه «يحاول دوما وضع إطار لموضوع ما، حيث يمكن لجميع هذه الحلقات التي تبدو غريبة وغير مترابطة؛ أن تظهر ملائمة ومُركَّبة داخله».

لماذا سيلقى المحقق شارلوك هولمز ترحيبا إن أراد العمل في وحدة التحقيقات الاستقصائية التابعة لشبكة الجزيرة؟

في إحدى روايات سلسلة شارلوك هولمز، كان المحقق الإنجليزي يناقش دليلا مع صديقه الوفي واطسون.. كان الشرطيان يحققان في الطريقة التي وصل بها كنزٌ مدفونٌ إلى لندن. قدم هولمز تفسيرا محتملا، وأجابه واطسون «لكن هذا محض تخمين»، قال هولمز «بل هو أكثر من ذلك.. إنها الفرضية الوحيدة باعتبار الحقائق المتوفرة».

يتشابه العمل الذي يقدمه الصحفيون الاستقصائيون في جانب كبير منه مع ما يقوم به المحققون على شاكلة شارلوك هولمز.

غير أن كلمة «استقصائي» تستخدم بتوسّع في مجالنا، ولا تحمل في الغالب معنى دقيقا، إذ تُستخدم أحيانا لتضفي بريقا على عمل صحفي تقليدي. كما تُستخدم الكلمة في بعض البلاد مع أي محتوى خبري تتجاوز مدة عرضه دقيقتين. يزعم كثير من الصحفيين والبرامجيين أنهم استقصائيون، مع أنهم لا يقدمون سوى حقائق معروفة. لا يقلل هذا من أهمية الصحافة التقليدية وخواص السرد القصصي المطلوبة في هذا النوع من الصحافة، لكنها ببساطة ليست صحافة استقصائية.

في واقع الأمر، تختلف الصحافة الاستقصائية الحقيقية عن الصحافة التقليدية اختلافا جذريا، وتكمن الاختلافات الجوهرية في ممارسات العمل المتباينة فيها.

نُطبِّق في وحدة التحقيقات الاستقصائية التابعة لشبكة الجزيرة منهجية تشبه المنهجية التي يمكن أن يتبعها أي محقق. وفي حقل الدراسة الأكاديمية الصحفية، تُوصف في الغالب إحدى المنهجيات المشابهة لمنهجيتنا «بالسرد القائم على الفرضية».

شيرلوك هولمز، بأداء الممثل البريطاني باسيل راثبون.
تصوير: سيلفر سكرين - غيتي.

ويضيف صاحب أحد الكتب المهمة هذا التوضيح ليقول لنا «لقد استُخدمت طرق مشابهة في استشارات الأعمال، والعلوم الاجتماعية، وعمل الشرطة.. ما فعلناه هو التعامل مع الآثار المترتبة عليها (على الطرق) من أجل استخدامها في العملية الصحفية، ولخدمة أهداف الصحافة الاستقصائية».

إننا داخل وحدة التحقيقات الاستقصائية لا ننقل الحقائق التي نراها حولنا، فالصحافة التقليدية التي تشمل الأخبار والشؤون الحالية بصفة يومية أو أسبوعية، تفعل ذلك بنجاعة. يعمل المراسلون الصحفيون وفقا لمجموعة من القواعد، ويحاولون إنتاج صورة واضحة للعالم من حولهم، وهو ما يحدث غالبا عبر السعي وراء «موازنة» الآراء المختلفة. يحاول المراسلون الصحفيون أن يكونوا

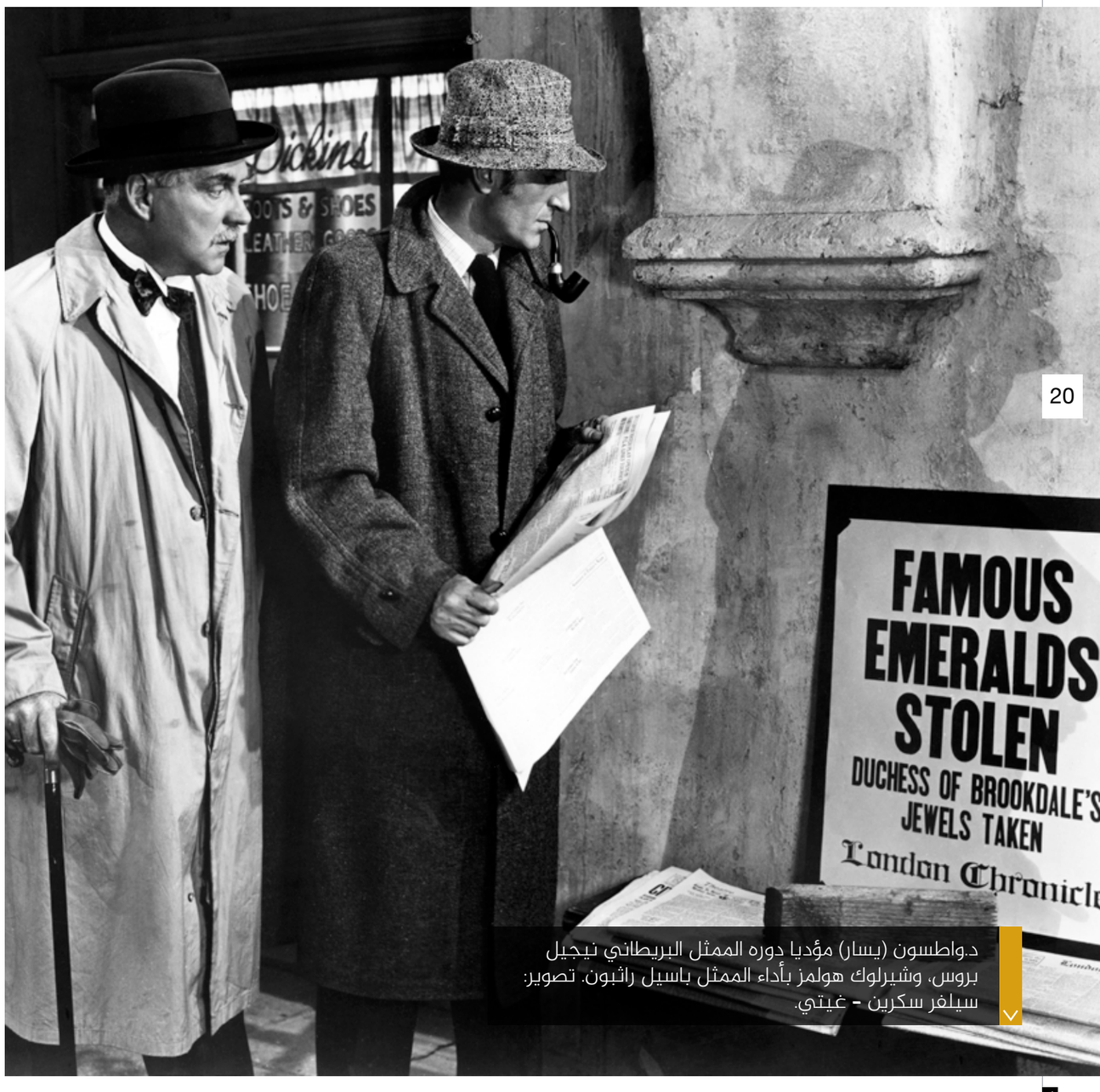

د.واطسون (يسار) مؤديا دوره الممثل البريطاني نيجيل بروس، وشيرلوك هولمز بأداء الممثل باسيل راثبون. تصوير: سيلفر سكرين - غيتي.

«موضوعيين»، ويرتكزون على ما يبدو كاتجاهين معاكسين للخبر.. إنهم ينقلون الروايات الرسمية للأحداث ويضعونها في الغالب أمام بديل ما، لكنهم لا يستقصون الحقيقة الكامنة وراء كل منها. تظهر المصادر في هيئة تسجيلات صوتية أو اقتباسات، حتى وإن لم يتحقق المراسل الصحفي مما ورد في هذه المصادر.

أما الصحافة الاستقصائية فتتعلق بتقديم الدليل لبرهنة صدق أحد الجانبين، أو ربما كذب كليهما، فلا تقبل بالنسخة المتداولة من «الحقيقة»، بل تبدأ بالقول إن ثمة نقصا في الصورة التي تنقلها الصحافة التقليدية للعالم من أجل فهمه.

ولكي نصل إلى حقيقة أخرى غير المتوفرة والشائعة، ينبغي علينا أن نقدم معلومات حصرية ومخفية، لا يمكنك أن تبحث عنها في غوغل كي تجدها، ولم ينقلها الصحفيون المحليون.. إنها معلومات جديدة تماما.

ومثلما يوحي شعار وحدة التحقيقات الاستقصائية، لا يتعلق عملنا بنقل الأخبار، بل بصناعة الأخبار. كما أن مخرجات وحدتنا تنقلها بانتظام المنظمات الإخبارية الأخرى، وهي علامة جيدة على ما إذا كانت التحقيقات حصرية حقا. تُغطي جدران مكاتبنا تقارير الأخبار التي تتناول تحقيقاتنا، إذ يشمل ذلك أخبارا نُشرت في الصفحات الرئيسية لعديد من الصحف العالمية مثل الغارديان البريطانية، ونيويورك تايمز الأميركية، وإلباييس الإسبانية، وميل أون صنداي البريطانية، وعديد من الصحف الأخرى.

لذا قد تتساءلون: كيف تبدؤون التحقيق في شيء لا تعلمون عنه شيئا؟ سوف يُستدعى شارلوك هولمز إلى مسرح الجريمة. لكن بالنسبة إلينا، يختلف الأمر قليلا.

إذا كنت محظوظا، قد تأتي القصة إليك.. قد يأتيك صوت عميق عبر الهاتف يبلغك بأن لديه وثائق سرية، أو قد يقرر أحد المبلغين عن المخالفات أن يسعى للوصول إليك. من المؤكد أن هذا لا يحدث بصورة عشوائية.. إننا نصنع حظنا بأنفسنا، إذ إن تطوير المصادر يتعلق بالإقناع وتشجيع الناس للكشف عن الأسرار والأدلة المتعلقة بالمخالفات.

إذا لم يحدث هذا فنحن بحاجة إلى فتح ملف تحقيقي. يعد هذا الفارق في الطرق التشغيلية هو الأكثر جوهرية بين ما تتبعه وحدة تحقيقات استقصائية وما تتبعه غرفة أخبار تقليدية أو قسم برامج تقليدي، وهنا يأتي دور شارلوك هولمز!

إننا نبحث عن أي شذوذ في الطريقة التي يقدم بها العالم نفسه، والطريقة التي يُنقل بها عبر الأخبار.. لدينا فكرة بأن ثمة شيئا في الأخبار لا يبدو مقنعا، وأن جزءا من الأحجية لا يتفق مع باقي الصورة.

نحاول كصحفيين استقصائيين دومًا أن نبدأ بوضع فرضيات مختلفة لموقف معين، تمامًا مثلما يفعل شارلوك هولمز حين يصل مسرح الجريمة، ونبدأ بطرح أسئلة عديدة من قبيل: هل من المعقول أن (أ) يقول الحقيقة بينما الواقعتان (ب) و(ج) تكذبان ذلك؟ هل يمكن أن تكون مجموعة من الإحصاءات دقيقة مع أنها تبدو مخالفة للمنطق السليم؟

يطلق محللو أدب روايات شارلوك هولمز على هذا «السبب والحس السليم». ويقولون «إنه تفكير قائم على معرفة مشتركة يمتلكها جميع الناس (ولكن نادرا ما يستخدمونها).. إنك تستخدم المنطق السليم عندما تطرح أسئلة تقول «هل يبدو هذا منطقيا؟» أو «هل هذا عملي؟» أو «هل هذا طبيعي؟» أو «هل هذا منطقي؟» أو «هل هذا معقول؟» أو «هل هذا جدير بالتصديق؟» أو «هل هذا واقعي؟».

ستجد في عديد من أعمال السير آرثر كونان دويل أن شارلوك هولمز يرشد واطسون إلى الطريقة الصحيحة لتكوين فرضية.. إنه دائما يبحث عن الدليل أولا. في رواية «فضيحة في بوهيميا»، يخبر هولمز واطسون قائلا «ليس لدي بيانات بعد.. إنه خطأ فادح أن يضع المرء نظرية قبل أن يكون لديه بيانات. وبدون وعي، يبدأ المرء في ليّ الحقائق كي تتماشى مع النظريات، بدلا من أن تتماشى النظريات مع الحقائق».

إن كل ما نفعله يعتمد على الأدلة، ورغم هذا، ومثلما يفعل أي شرطي يبدأ تحقيقًا، قد يشك في أنه يعرف مرتكب الجريمة، لكنه لا يملك دليلا كافيا لإدانته.

وبطريقة مشابهة، تكمن مهمة الصحفي الاستقصائي في السعي وراء دليل لدعم أي فرضية نعتقد أنها حقيقة، ولكننا لا نمتلك دليلا كافيا بعد لإثبات صحتها. تبقى الفرضية مجرد فرضية حتى يتم التحقق من صحتها.

ومثلما يسعى هولمز لإدانة شخص ما بارتكاب جريمة، تسعى صحافتنا للوصول إلى دلائل كافية لإثبات المخالفات والتجاوزات. قد يتعلق الأمر بإثباتنا أن (أ) قد خرق القانون.. في هذه الحالة، قد تستخدم السلطات ذات الصلة أدلتنا كي تحاكمه.. في حالات أخرى، قد نكشف عن حدوث خداع ومخالفات. بعبارة أخرى، قد نكشف عن معلومات أراد (أ) إخفاءها ومنع الآخرين من معرفتها.

وعلى عكس رجال الشرطة، ليست لدينا سلطة إجراء المقابلات أو الاحتجاز أو المساومات، ولكن بوسعنا اللجوء إلى طرق مبتكرة لجمع الأدلة. يمكن أن تتضمن هذه الطرق استخدام تسجيلات سرية، واستخدام خدعة ما لجذب المشتبه به، أو الاكتفاء بالمراقبة لتحديد ما هو بصدد القيام به.. إننا نفكر في كل الأوقات مثل شارلوك هولمز، ونسأل أنفسنا هل نحن قادرون على الوصول إلى أدلة كافية لإثبات المخالفات؟

بعد صياغة فرضيتنا المبدئية، إذا ظهرت حقائق جديدة، ربما نُضطر إلى إلغاء تحقيقنا لأن شكوكنا كانت خاطئة، أو قد نعدل الفرضية. فعل شارلوك هولمز ذلك عندما تعارضت البيانات الجديدة مع فرضيته، فقد قال هولمز في قصة «لغز الوجه الأصفر»: «عندما نعلم الحقائق الجديدة التي لا

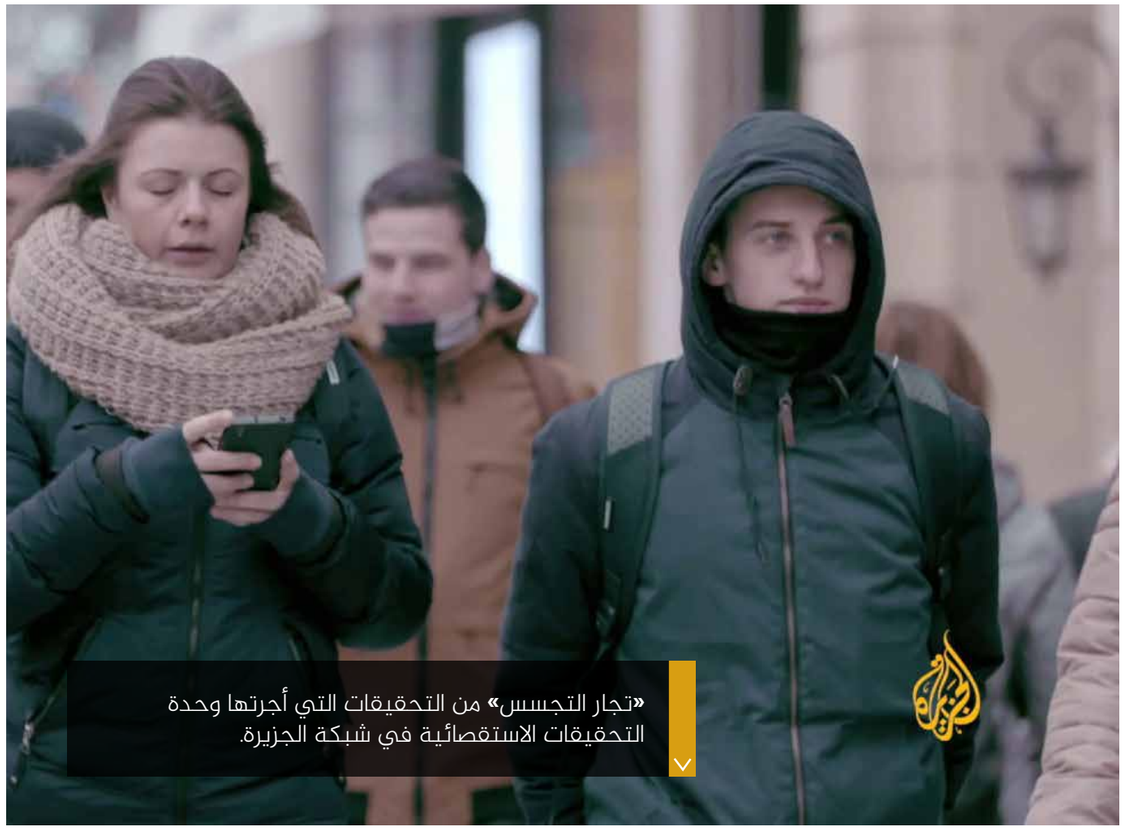

«تجار التجسس» من التحقيقات التي أجرتها وحدة التحقيقات الاستقصائية في شبكة الجزيرة.

يمكن أن تشملها معرفتنا، فإن هذا هو الوقت المناسب لإعادة النظر في موقفنا».

تتعلق الصحافة الاستقصائية أيضا باختبار فرضياتنا، ففي قصة «مغامرة الجندي الشاحب» اختبر هولمز نظريته حول سبب بقاء شاب صغير في منزل والده، ونصح واطسون قائلا «قد يكون هناك عدة تفسيرات باقية، وفي هذه الحالة يختبر المرء التفسير تلو الآخر حتى يحمل أحدها كمًّا مقنعا من الأدلة».

تتعلق الخطوة النهائية في أي تحقيق بتقييم الأدلة التي جمعها المرء، وتقرير هل هو قادر على الوصول إلى نتيجة وخلاصة.. نتساءل «هل يمكننا إثبات أن (أ) لم يكن يقول الحقيقة؟»، ثم تسعى وحدة التحقيقات للحصول على استشارة من المحامين والالتزام بما يطلبونه من أدلة مهما كان قدرها، وهو نفس القدر الذي احتاجه شارلوك هولمز ليثبت أمام القاضي وهيئة المحلفين أن مشتبها به ارتكب جريمة.

يوجد جانب تشابه آخر.. تتوصل أعمال الصحافة الاستقصائية الأفضل إلى حقائق جديدة تجعل العالم يبدو منطقيا.

ولذلك، حين صاغ هولمز نظرياته، كان يبحث دائما عن موضوع مشترك يربط بوضوح بين الحقائق غير المترابطة.

في رواية «كلب آل باسكرفيل»، وصف واطسون عقل هولمز بأنه «يحاول دوما وضع إطار لموضوع ما، حيث يمكن لجميع هذه الحلقات التي تبدو غريبة وغير مترابطة أن تظهر ملائمة ومُركَّبة داخله».

فلو كان هناك شارلوك هولمز حقيقي يعيش بيننا اليوم، فأعتقد أنه كان سيصبح صحفيا استقصائيا ناجحا.

«الأوليجاركي، الطغمى المنتفعة» من التحقيقات التي أجرتها وحدة التحقيقات الاستقصائية في شبكة الجزيرة.

مشهد من فيلم «كلب آل باسكرفيل» - غيتي.

تكلفة باهظة للصحافة الاستقصائية في المغرب

محمد لفويرس

كانت قد بدأت تلوح في الأفق بوادر عمل صحفي استقصائي مغربي، لكن هذه التجربة لم تدم بعد توقيف مجموعة من المنابر الإعلامية التي استطاعت أن تثبت قدمها في المشهد الإعلامي المغربي.

عمدت قنوات القطب العمومي المغربية إلى جعل أخبار منطقة الحسيمة في مستهل نشراتها الإخبارية اليومية، دون الغوص في خبايا الأمور وتعرية الواقع. يوليو/تموز 2017. تصوير: يوسف بودلال - رويترز.

عرف المشهد السياسي المغربي العديد من التغيرات الجوهرية والتطورات المتسارعة خلال أكتوبر/تشرين الأول 2017، عقب ما جاء في خطاب الملك المغربي محمد السادس في سياق افتتاح السنة البرلمانية الجديدة. وحمل هذا الخطاب إشارات واضحة إلى ضرورة محاربة كل أشكال الفساد واستغلال السلطة لتحقيق مآرب شخصية وتفعيل المبدأ الدستوري الرابط بين المسؤولية والمحاسبة.

أيام قليلة بعد الخطاب الملكي، تفاجأ الرأي العام المغربي ببلاغ للديوان الملكي يصرح بإعفاء الملك عددا من الوزراء والمسؤولين الحكوميين ومسؤولي الإدارة الترابية (وزارة الداخلية)، بعد ثبوت تورطهم -حسب تقرير صادر عن المجلس الأعلى للحسابات- في تأخير إنجاز مشاريع «منارة المتوسط»(1)، وهو يمثل سببا مباشرا من أسباب تزايد رقعة احتجاجات ساكنة الحسيمة -المدينة المتواجدة بمنطقة الريف- في تلك الفترة.

لم تخرج تغطية الإعلام العمومي المغربي لهذه التطورات عن سياق عمله الروتيني الخاضع لسيف السلطة، باعتبار أن الإعلام العمومي في المغرب يتبع الشركة الوطنية للإذاعة والتلفزة المغربية، وتمتلك الدولة الحصة الأكبر في أسهم الشركة، وبالتالي يتعين على العاملين بهذه المؤسسات الالتزام بنظرة حارس البوابة أو بالرؤية الرسمية للأخبار والأحداث ومجمل ما يمور من تغييرات في المشهد السياسي والاجتماعي والاقتصادي داخل المملكة.

وقد عمدت قنوات القطب العمومي -خصوصا القناة الأولى وقناة 2M- إلى جعل أخبار منطقة الحسيمة في مستهل نشراتها الإخبارية اليومية، لكن من دون الغوص في خبايا الأمور وتعرية الواقع، وأعملت -بدلا من ذلك- على توجيه المتلقي نحو التركيز على المجهودات المبذولة من طرف الحكومة لتنمية المنطقة وإخراجها من دائرة التهميش والفقر.

سلسلة قرارات الإعفاء ومحاسبة المسؤولين لم تتوقف عند هذا الحد، بل لا تزال التقارير الصادرة عن المجلس الأعلى للحسابات بخصوص عمل المجالس المنتخبة في المحافظات والجماعات المحلية بالمملكة تحصد مزيدا من الرؤوس وتزكي نوعية القرار الديمقراطي المتخذ من أعلى سلطة في البلاد، من أجل تنظيف الحقل السياسي المغربي. لكن أين موقع الإعلام العمومي والخاص من كل ذلك؟ أليست نوعية صنع القرار الديمقراطي ترتبط ارتباطا وثيقا بنوعية الإعلام، حسب كاترين فولتمن(2)؟ تثير تلك المستجدات التساؤلات بشأن دور الإعلام كآلية للرقابة استنادا إلى نظرية صحافة الرقابة التي تعتبر أن الصحافة يتعين عليها أن تنتقد وتقيّم أداء الحكومات والمؤسسات الأخرى من أجل التأكد من أن أحدا لم يتورط في الفساد، أو يتجاوز مهام منصبه.

واعتبارا لأهمية صحافة التحقيق أو الصحافة الاستقصائية في القيام بهذا الدور، فإننا نطرح التساؤل بشأن حضور هذه الصحافة بالمغرب وتوجه الفاعلين المهنيين في المجال الإعلامي في القطاعين العام والخاص نحو ممارسة هذا الصنف من الصحافة، والعمل على القيام بدور محوري في الكشف عن قضايا الفساد، وفضح كل أشكال التحايل والتلاعب بالقانون وإهدار المال العام.

الحاجة إلى مقومات النمو

قبل عقدين من الزمن، شهدت الصحافة المغربية تطورات متلاحقة خصوصا مع بروز الصحافة المستقلة عام 1996، وتلا ذلك حرص النظام الجديد -عهد الملك محمد السادس- على توفير الأرضية القانونية لانتعاش الصحافة عبر السماح لمجموعة من الإعلاميين المستقلين بتأسيس مؤسسات إعلامية لقيت صدى لدى المتلقي المحلي الذي تجاوب مع جرعة ومنسوب زائد من الجرأة.

وتعزز ذلك التوجه بتنزيل قانون تحرير القطاع السمعي البصري -السمعي فقط في مرحلته الأولى- عام 2006، وبدأت تلوح

سبق وأن أعدت مجلة تيل كيل تحقيقات صحفية حول مواضيع كانت تعد خطوطا حمراء بالمغرب.

في الأفق بوادر عمل صحفي استقصائي من خلال تجربة مجلة «تيل كيل» وتناولها لمواضيع حساسة بنفس استقصائي؛ إذ سبق أن أعدت تلك المجلة تحقيقات صحفية حول مواضيع كانت تعد خطوطا حمراء في المغرب، مثل التحقيق الذي نشرته بخصوص النشاط التجاري لأفراد من الأسرة المالكة. لكن هذه التجربة لم تدم بعد توقيف مجموعة من المنابر الإعلامية التي استطاعت أن تثبت قدمها في المشهد الإعلامي المغربي. هناك بعض المحاولات الاستقصائية من خلال برامج التحقيق بقنوات القطب العمومي (الشركة الوطنية للإذاعة والتلفزة المغربية) مثل برنامج «تحقيق» بقناة M2 وبرنامج «45 دقيقة» بالقناة الأولى وبرنامج «المحققون» بقناة «ميدي1». بيد أن كل تلك البرامج تركز على القضايا ذات الطابع الاجتماعي، ولا تغوص بشكل أعمق في القضايا الحساسة التي باتت ضمن خانة المقدسات والثوابت، من قبيل قضايا الفساد التي تطال كبار المسؤولين.

وفي الآونة الأخيرة، أسس الإعلامي رشيد نيني -المعروف بجرأة قلمه في طرح ومناقشة التابوهات في مقالاته خلال مسيرته الصحفية- قناة «تيلي ماروك»، وهي قناة خاصة تبث من إسبانيا، وتقدم فيها الإعلامية غزلان أنوار برنامجا خاصا بصنف التحقيق «طابو»، بيد أنها تشتغل وفق خط التماس ذاته من دون الغوص في ملفات تمس «الثوابت» أو المؤسسات التي لا يطالها النقد، من قبيل المؤسسة الملكية ومؤسسة الجيش و«أصحاب الحظوة» القريبين من صنع القرار السياسي.

ورغم محاولات التأسيس هذه لصحافة استقصائية بالمغرب، فإن إبراهيم الشعبي الباحث في الإعلام والاتصال والمدير الجهوي لوزارة الاتصال بطنجة يرى أن «الصحافة الاستقصائية في بلدنا، التي تعتبر عصب مهنة المتاعب، ما زالت محتشمة في مختلف وسائل الإعلام محليا، رغم أن لها أهمية محورية في الكشف عن الحقائق في قضايا تهم الشأن العام الوطني، سواء أكانت هذه القضايا سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية؛ لأن الصحفي المحقق لا يكتفي بنشر الخبر، بل يتجاوزه إلى استنطاق الأحداث والفاعلين المباشرين فيه».

بدوره يذهب حسن اليوسفي المغاري الكاتب العام للمعهد العالي للإعلام والاتصال بالدار البيضاء، إلى أبعد من ذلك حين يقر بأن «جنس التحقيق الصحفي يكاد يكون منعدما بالمغرب، وهناك خلط ملحوظ يقع فيه العديد من الإعلاميين المحليين لكونهم لا يفرقون بين جنس التحقيق الصحفي وجنس الربورتاج». ويضيف أنه «من المستبعد في الوقت الحالي توفر صحافة استقصائية في المغرب تضاهي مثيلاتها بالدول الغربية؛ تبحث في قضايا فساد عالمية وعابرة للحدود مثل تحقيق وثائق بنما».

برامج التحقيقات في القنوات العمومية المغربية تركز على القضايا ذات الطابع الاجتماعي ولا تغوص في القضايا الحساسة. تصوير: يوسف بودلال - رويترز.

لذلك يقترح اليوسفي أن يعمل الإعلاميون المغاربة من ذوي الخبرة والباع الطويل في مجال الصحافة على اختلاف أجناسها؛ على تطوير مهاراتهم في صنف الصحافة الاستقصائية، والتزود من معين ذوي الاختصاص على المستوى الإقليمي والدولي من أجل إشراك معارفهم مع الإعلاميين الشباب الراغبين في ولوج عالم الصحافة الاستقصائية الذي -حسب رأيه- يتطلب مهارات عدة، في إشارة إلى واقع تدريس هذا الصنف في المعاهد والمؤسسات المختصة بالمملكة، بحيث يؤكد اليوسفي على أهمية توفر الطاقات المتخصصة من أجل تسهيل تدريس الصحافة الاستقصائية، خصوصا أنه ليس هناك مقرر خاص بها في المؤسسات والمعاهد المختصة بالإعلام والصحافة أو بوحدات الدراسات العليا في المؤسسات الجامعية.

عقبات في طريق التأسيس

ينطلق عمل الصحفي الاستقصائي من المعلومة، ولا يكتمل عمله إلا بالحصول على قدر أكبر من المعلومات لتعزيز فرضيته والتحقق منها والوصول إلى النتائج المتوخاة بشكل علمي دقيق. ورغم أن الدستور المغربي ينص في الفقرة الثانية من الفصل 27 على حق الحصول على المعلومة، فإن ذلك يقيّد بمجموعة من الالتزامات والتقييدات. في المادة السادسة من قانون الصحافة والنشر يشار إلى أنه «يحق للصحفيات والصحفيين ولهيئات ومؤسسات الصحافة الولوج إلى مصادر الخبر والحصول على المعلومات من مختلف المصادر، باستثناء المعلومات التي تكتسي طابع السرية.. إلخ». وعبَّر اليوسفي عن استغرابه بشأن استمرار النقاش حول قانون الحصول على المعلومة وتأخر تنزيل القانون التنظيمي، وهو الذي يكفل وضع النقاط على الحروف وتوضيح كيفية الحصول على المعلومة بشكل قانوني من دون توظيف مصطلحات فضفاضة وغامضة تترك مجالا للمشرع للتأويل والاجتهاد.

إشكالية أخرى تخص استقلالية الإعلام في المغرب ترتبط بمسألة التمويل، حيث ينص قانون الصحافة والنشر على ضرورة توفير الدعم من قبل الجهات المختصة والمتدخلة في القطاع للمؤسسات الإعلامية على اختلاف أجناسها وفق شروط ومعايير محددة. وتكفي الإشارة هنا إلى أن الوزارة الوصية -وزارة الاتصال- تقدم دعما سنويا للصحف والجرائد الورقية وكذلك الإلكترونية

الصحفي المغربي رشيد نيني في كلمة لمؤيديه بعد إطلاق سراحه في الدار البيضاء في أبريل/نيسان 2012، بعد أن قضى عاما في السجن بسبب عمله الصحفي المنتقد للسلطة - رويترز.

وفق العقد/البرنامج. ويشترط في هذه المنابر التوفر على الخضوع للشروط والضوابط المنظمة لهذه العملية. كما أن قانون الصحافة والنشر يقنن بشكل كبير حصول المؤسسات الإعلامية الخاصة على الدعم الأجنبي ومصادر التمويل الخارجية، وهنا تبرز معضلة ظهور صحافة استقصائية مهنية في المغرب، باعتبار أن ذلك يتطلب صحافة مستقلة لا تأبه بالخطوط الحمراء ولا تخضع لسيف السلطة. وحتى في حال توفر ممول من القطاع الخاص، فإنه لن يغامر بالسماح لإعداد تحقيقات استقصائية يمكن أن تسبب له مشاكل يجد أنه في غنى عنها، ويُحتمل أن تُحدث له صراعات وعلاقات متوترة مع أشخاص نافذين في البلاد، أو مع السلطة السياسية ذاتها. تكلفة الصحافة الاستقصائية أغلى من باقي الأجناس الصحفية الأخرى، ويفترض في الصحفي الاستقصائي الحصول على التمويل الكافي لإنجازها.

تفاؤل حذر

ثمة مستجدات طرأت على مستوى المشهدين السياسي والإعلامي في الفترة الأخيرة، فقد بادرت أعلى سلطة في البلاد إلى التعبير عن نيتها تفعيل المبدأ الدستوري بشأن ربط المسؤولية والمحاسبة بشكل صارم يأخذ بعين الاعتبار معاقبة من يثبت تورطهم في قضايا فساد أو اختلاس أو إهدار المال العام. ولن ندخل في تفاصيل الشكوك التي حامت حول خلفيات ومبررات هذه القرارات من طرف متتبعين ومهتمين بالشأن السياسي المغربي بحجة أن سلسلة الإعفاءات والإقالات استهدفت أطرافا وأحزابا بذاتها، بيد أنه لا بد من الإشارة إلى تفاعل الرأي العام والمواطن العادي مع هذه القرارات التي رأى فيها بارقة أمل تلوح في الأفق.

هوامش:

1) أعطى الملك محمد السادس الانطلاقة لبرنامج «الحسيمة منارة المتوسط» يوم 17 أكتوبر/تشرين الأول 2015، وهو برنامج خصصت له اعتمادات مالية تفوق 6,5 مليارات درهم، على أن يتم الانتهاء من إنجاز مشاريعه التي تهدف إلى تحقيق التنمية المجالية بإقليم الحسيمة خلال العام 2019. ويهدف هذا البرنامج إلى تنمية الوسطين الحضري والقروي للإقليم، كما يقوم على خمسة محاور أساسية هي: التأهيل الترابي، والنهوض بالمجال الاجتماعي، وحماية البيئة وتدبير المخاطر، وتقوية البنيات التحتية، إلى جانب تأهيل المجال الديني.

2) Bullets and Bulletins Media and Politics in the wake of the Arab uprising, part1 (Fatima Elissawi :a comparative analysis of traditional media industry transitions in Tunisia , Lybia , and Egypt , Mohamed Zayani and Suzi Mirgani (eds) 2016

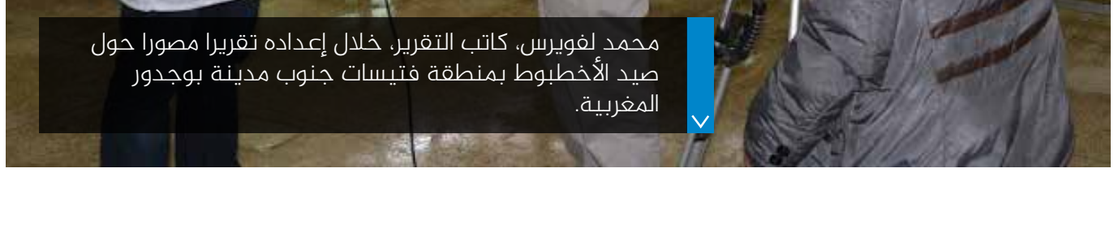

محمد لفويرس، كاتب التقرير، خلال إعداده تقريرا مصورا حول صيد الأخطبوط بمنطقة فتيسات جنوب مدينة بوجدور المغربية.

التحقيق الاستقصائي.. الجو ماطر أم مشمس؟

ريتشارد كوكسون

عليك كصحفي استقصائي ألا تركز على استخدام الكاميرات السرية أو أساليب التخفي، بل على الصفات التي ينبغي أن تتوفر في المحقق الصحفي، وأهمية القانون وأخلاقيات المهنة، وامتلاك القدرة على إقناع الناس بالتحدث.

إذا كنت ترغب في تغيير العالم، فكل ما تحتاج إليه هو قلم ودفتر وذهنية سليمة. وبواسطة هذه الأمور، يمكنك أن تساهم في سقوط القادة الفاسدين، وفضح تجاوزات الشركات، وإرسال شِرار القوم إلى السجون. وهذا ما أقوله للصحفيين والمنتجين الذين يحضرون دورات الصحافة الاستقصائية التي أقدمها.

وبعد أكثر من 20 عاما من العمل محقِّقا صحفيّا، أؤمن إيمانا راسخا بذلك. فامتلاك العقلية السليمة والنهج المناسب هما في رأيي أهم العوامل المحدِّدة لنجاح أي تحقيق أو فشله.

لذا، فإننا في الأيام الأولى للدورات التي أقدمها، نغض الطرف عن كثير من الأشياء التي يُتوقع أن تُدرَّس في الدورات، كاستخدام كاميرات سرية أو أساليب التخفي. ونستعيض عن ذلك بالتركيز على إرساء النهج والتوجه المناسبين، فنركز عادةً على أمور ثلاثة: الصفات التي ينبغي أن تتوفر في المحققين الصحفيين، وأهمية القانون وأخلاقيات المهنة، وامتلاك القدرة على إقناع الناس بالتحدث.

صفات الصحفي الاستقصائي

تتضمن جميع أشكال الصحافة الجيدة مستوى أساسياً من القدرة الاستقصائية، كالتحدث إلى المصادر والتحقق من صحة الحقائق. يقول لورد نورثكليف أحد أشهر ناشري الصحف في بريطانيا: «ما الأخبار إلا أشياء يريد شخص ما في مكان ما أن يخفيها، وكل ما سوى ذلك هو إعلانات». في بعض التحقيقات، قد يستغرق الأمر أسابيع وشهورا وربما سنوات لكي تصل إلى الحقيقة، لأن الأشخاص أو المنظمات المتورطة في الأمر لا تريدك أن تكشف تلك الحقائق. إن عملية العثور على الأدلة المخفية ونشر قصة عنها هو المقصود «بالصحافة الاستقصائية».

إذا كنت ترغب في تغيير العالم، فكل ما تحتاج إليه هو قلم ودفتر وذهنية سليمة - غيتي.

تتطلب التحقيقات تصميما وثباتا وحيلة وفضولا.. يمكنها أن تستنزف الكثير من الوقت والمال، وليس ثمة ما يضمن الوصول إلى ما يكفي من الأدلة لتسويغ كتابة قصة واحدة. ولكن النتائج يمكن أن تكون هائلة، فبإمكان التحقيقات أن تحقق تغييرات هامة في المجتمع، مثل إقرار قوانين جديدة، والتسبب في إصدار ملاحقات جنائية، وحتى تغييرات في تشكيل الحكومة.

من الصعب إيجاد تعريف مُرْضٍ للصحافة الاستقصائية، لكنّ الصحفي البريطاني المخضرم نيك ديفيز الذي عمل في صحيفة الغارديان خلال الفترة الأطول من حياته المهنية، كان يخبر الناس القصة التالية الغريبة بعض الشيء لمساعدتهم على فهم المصطلح: تخيلوا معي أننا ننتج أخبارا يومية وعلينا إجراء مقابلة مع شخصين لكُل واحد منهما رأي مناقض لرأي صاحبه فيما يتعلق بالطقس.. جرت العادة على أننا قد نُجري المقابلةَ معهما سويا، ومن ثم نعد تحقيقا عن خلافهما ذاك، فيُقرَأ التحقيق على هذا النحو.. «احتدم خلاف بالأمس حول حالة الطقس.. ادَّعى السيد سميث أن الجو كان مُشمسا، في حين زعم السيد غرين أنه كان ممطرا».

يقول ديفيز إن دور المحقق الصحفي يكمن في أن يذهب إلى النافذة ويستطلع حالة الطقس بنفسه، ليعرف أيّ المصدرين كاذب والعلة وراء ذلك، فالصحافة الاستقصائية محاولة للوصول إلى «الحقيقة» التي يمكن إثباتها بالبراهين عبر جمع الأدلة واختبارها بعناية. وبينما تتنوع تعريفات الصحافة الاستقصائية، ثمة اتفاق واسع النطاق على سماتها الرئيسية، وهي: البحث والإعداد المنهجي والمتعمق والأصلي للتقارير، وكثيرا ما ينطوي ذلك على الكشف عن الأسرار.

أصدرت مؤسسة كونراد أديناور الخيرية الألمانية قائمة بالصفات التي يحتاج الصحفي الاستقصائي التحلي بها، من ضمنها الفضول وحس المبادرة والتفكير المنطقي والتنظيم والانضباط الذاتي والمرونة والعمل الجماعي الجيد ومهارات الاتصال ومهارات التقرير المتقدمة وسعة الاطلاع والمهارات البحثية الجيدة والتصميم والصبر والنزاهة والتميز والمواطنة والشجاعة. وهذه هي الصفات التي أشجع الناس الذين يحضرون دوراتي على اكتسابها وتطويرها.

ولأن التحقيقات يمكن أن تستهلك الكثير من الوقت والجهد، فهي تميل إلى التركيز على القصص التي تهم الجمهور. في المملكة المتحدة يقال إن مثل هذه القصص تصبّ «في المصلحة العامة». ومن أكثر التعريفات فائدةً لمفهوم المصلحة العامة تعريف موجود في ميثاق الممارسة الصحفية للمحررين الصحفيين، جاء فيه: «تشمل المصلحة العامة الأمور الآتية، على سبيل المثال لا الحصر:

• الكشف عن الجرائم أو المخالفات الخطيرة أو فضحها.

• حماية الصحة والسلامة العامة.

• حماية الجمهور من التضليل بفعل أو بيان من فرد أو منظمة.

قبل أن نبدأ أي تحقيق، أشجع طلابي أن يسألوا أنفسهم: هل من المرجح أن يحقق تحقيقهم النهائي واحدا أو أكثر من هذه الأهداف؟ وإن لم يكن كذلك، فما جدوى المضي قدما فيه؟ قال موراي سايل -وهو صحفي استقصائي من المملكة المتحدة- قولتَه المشهورة: إن هناك نوعين فقط من التحقيقات: «فَضح الخطأ، وكشف الجوانب غير المنطقية في القصص».

كما أن العمل لصالح المصلحة العامة يمكن أن يساعد في تسويغ استخدام بعض التقنيات الأكثر تطفلا التي يستخدمها الصحفيون الاستقصائيون أحيانا، كالتصوير السري والتخفي.

أهمية القانون والأخلاق

تمنح بعض البلدان مكانةً خاصةً للصحفيين والمواد التي يعملون عليها؛ وفي بلدان أخرى يُعامَل الصحفيون مثل أي مواطن آخر. وأيا كانت الحال، فإن الصحفيين الاستقصائيين بحاجة إلى معرفة القوانين التي قد تؤثر عليهم وعلى عملهم وفهمها جيدا. ومنها مثلا:

• **الجرائم:** ثمة قوانين لحماية تحقيقات الشرطة، وحماية هوية ضحايا الجرائم الجنسية، وحماية هوية القصّر، وضمان حصول المشتبه بهم على محاكمة عادلة غير منحازة لتكهنات أو عدم دقة التقارير.

• الدفاع والأمن القومي: لمنع المعلومات السرية من الوقوع في أيدي الجهات الأجنبية أو الإرهابيين.

• **السرية:** لحماية المعلومات الشخصية أو التجارية الخاصة من الوقوع في الأيدي الخاطئة.

ليس مهما في الصحافة الاستقصائية التصوير بكاميرا سرية أو التخفي، بل اعتماد النهج والتوجه المناسبين - غيتي.

• **العلاقات بين الناس:** لمنع انتشار الكراهية العرقية أو الدينية أو الإثنية.

• **الأخلاق العامة:** إيقاف نشر المواد المسيئة أو غير اللائقة.

عادة ما تخضع الصحافة الاستقصائية إلى تدقيق ومتابعة أكثرَ من الأشكال الأخرى للصحافة، ولذلك فمن المهم أن يتصرف كل شخص يعمل في أي تحقيق بأعلى مستوى من النزاهة والمهنية. فوجود هفوات في احتراف المهنة أمر يمكن أن يستغله النقاد لتقويض مصداقية التحقيق ورفع دعوى ناجحة أو حتى لاتخاذ إجراءات قانونية ضد الصحفي.

في جميع أنحاء العالم، ثمة قواعد للسلوك تصف ما ينبغي للصحفيين انتهاجُه إذا كانوا يرغبون في التقدير باعتبارهم ممارسين يتعاملون بأخلاق ومهنية. ويعتقد الصحفيون الأخلاقيون أنه من أجل كسب ثقة قرائهم أو المستمعين أو المشاهدين، عليهم أن يتصرفوا بمسؤولية، وأن يطمحوا إلى تقديم تقرير مستقل ودقيق للأحداث غير متأثر بسياساتهم الشخصية أو عواطفهم.

تُصاغ هذه القوانين الأخلاقية ويُروَّج لها على أيدي اتحادات الصحفيين، مثل الاتحاد الدولي للصحفيين. وتمتلك المؤسسات الإخبارية الكبرى، مثل قناة الجزيرة والبي.بي.سي ورويترز قواعدها الخاصة، وتطلب من الصحفيين العاملين بها التقيد بما يرد فيها.

لا تقدم هذه القواعد إجابات لكافة المشاكل، لكنها تقدم المشورة والنُّصح. ولا عجب طبعا في أنها لا تتماثل في كل التفاصيل، ولكن معظمها يتفق على القيم الأساسية مثل الدقة والصدق والنزاهة.

بيد أن فهم هذه القضايا من حيث المبدأ مختلف تماما عن وَضْعها موضعَ التنفيذ في مواقف الحياة الحقيقية، لذا نقضي وقتا طويلا من الدورة التدريبية في النظر في المعضلات الأخلاقية. وفي كثير من الأحيان لا توجد إجابات قاطعة «صحيحة» أو «خاطئة» للمسائل الأخلاقية، ولكن المبدأ المهم هو أن تكون قادرا على الدفاع عن أفعالك والتسويغ لها، مما يدل على أنك قد تصرفت وفقا للقانون وتحليت بالدقة والصدق والنزاهة.

أحيانا، قد يشعر بعضُ الصحفيين بأن عنده ما يبرر خَرقَه لقواعد السلوك الخاصة بهم، كتصوير شخص ما سرّاً، أو إخفاء الهوية الحقيقية (التخفي)، وأنهم يفعلون ذلك

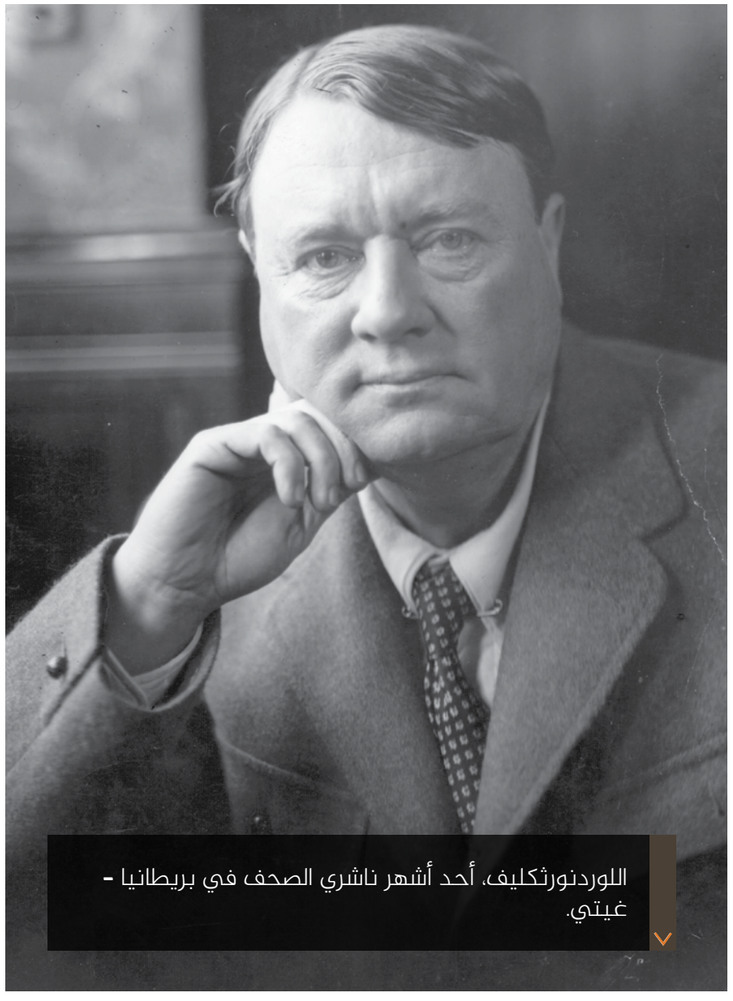

اللوردنورثكليف، أحد أشهر ناشري الصحف في بريطانيا - غيتي.

في إطار المصلحة العامة. وتحدِّد العديد من المدونات الصحفية لقواعد السلوك أيضا كيفية تصرف الصحفيين عند التفكير في القيام بذلك.

كيف تقنع الناس بالتحدث؟

يعتمد جميع الصحفيين الاستقصائيين على أفراد يخبرونهم بأشياء، لذلك فإن من أهم المهارات القدرة على إقناع الناس بالتحدث إليكم. وبعض هؤلاء المصادر قد يكونون مترددين في التحدث معك لأنهم خائفون، أو متعجرفون، أو لا يثقون بالصحفيين، أو يعتقدون أنهم لا يستطيعون ذلك لأسباب قانونية. وفي كثير من الأحيان لن يكون أمامك سوى فرصة واحدة فقط لإقناعهم، لذلك عليك أن تستغل هذه الفرصة السانحة. وفي الدورة التدريبية أُحُضُّ المشاركين على التريُّث والتفكير والتخطيط لهذه المحادثات بعناية فائقة. فلإقناع شخصٍ ما بالتحدث، علينا أن ندرك جيدا ما يحفزه وكيف يمكننا استخدام ذلك لصالحنا. فمثلاً، هل هي أمّ تريد مصلحة أطفالها، أم موظف سَئِم من عدم استماع أحد إليه بخصوص شكواه من الفساد؟

وليس علينا التفكير فيما نقوله للناس فحسب، وإنما علينا أن نراعي كيف نقدم أنفسنا لهم وماذا نرتدي، فمثلا لو كان لدى عامل مَصنع قصة تدور حول مديره الذي يتجاهل احتياطات السلامة العامة للعمال، فسيتردد في الحديث إليك إذا توجهت إليه مرتديا بدلة رسمية تذكّره برئيسه!

ولكي تكون فرصتنا أفضل في إنجاح الأمر، فإننا نتدرب على ما سنقوله لشخص ما قبل أن نتحدث إليه. قام نيك ديفيز من الغارديان بهذا عندما كان على متن قطار في طريقه لرؤية مؤسس ويكيليكس، جوليان أسانج. كان على ديفيز أن يعمل بجد لإقناع أسانج بالسماح لصحيفته بالوصول إلى الملايين من المراسلات الدبلوماسية الأميركية المسربة التي أرسلت إلى ويكيليكس، ولكن النتيجة كانت سَبقا صحفيّاً كبيرا لصحيفته.

قد يبدو التركيز على غرس المهارات الشخصية كهذه مقدمةً غريبة للصحافة الاستقصائية، ولكن تجربتي هي أن الأشخاص الذين ينجحون في امتلاك هذه المهارات هم الأقدر على إنتاج عمل صحفي استقصائي مُبهِر.

على الصحفي الاستقصائي التفكير بالطريقة المثلى لإقناع الناس بالحديث (الأم عن مصلحة أطفالها مثلا). تصوير: تشيريل رافيرو - رويترز.

أطراف النزاع السوري لا ترحب بالصحافة الاستقصائية

أحمد حاج حمدو

عليك كصحفي استقصائي ألا تركز على استخدام الكاميرات السرية أو أساليب التخفي، بل على الصفات التي ينبغي أن تتوفر في المحقق الصحفي، وأهمية القانون وأخلاقيات المهنة، وامتلاك القدرة على إقناع الناس بالتحدث.

يتفاجأ زملائي الصحفيون عندما أسرد لهم قصّتي مع «الصحافة الاستقصائية» في سوريا، فالبعض منهم ينتقدني، وآخر لا يصدّقني، وثالث يطالبني بالكف عن الهراء.

لم أمارس مهنة الصحافة قبل عام 2012.. كنت كحال أي مواطن سوري، لا أسمع بمصطلح «الصحافة الاستقصائية» ولا أعرف معناها أو أي شيء عن ماهيتها. درستُ في كلية الإعلام بجامعة دمشق ولم يتغيّر أي شي في السنوات الأولى، كان جل ما أعرفه عن الأنواع الصحفية هو الخبر والتقرير والمقال، فضلاً عن التحقيقات السطحية التي كانت تجريها الصحف السورية المحلية المترهّلة التي لا تزال تعيش حقبة الخمسينيات، ولا تملك حتى صفحةً على مواقع التواصل الاجتماعي.

في عام 2013 عندما كنت في السنة الثالثة بالجامعة، سمعتُ لأوّل مرّة عن الصحافة الاستقصائية.. أغواني اسمها، رُبّما كنتُ محظوظا أنّني بدأتُ مسيرتي المهنية مع منصّة تُعتبر الوحيدة التي كانت تعمل بالصحافة الاستقصائية في سوريا، وإن لم تكن الوحيدة فإنها حتماً واحدة من منصّتين أو ثلاث تختص بهذا النوع من الصحافة.

لم أجلس على «ديسك التحرير» سابقاً، لم أحرّر أخباراً ولا تقارير، فمنذ أن سمعت بالصحافة الاستقصائية وأنا أساهم بجهود فردية مع قلّة من الصحفيين آمنتْ بها، الأمر الذي لا يزال يدفع كل من أحكي له قصّتي للسؤال: «كيف تعمل بالتحقيقات الاستقصائية قبل أن تجلس في غرف الأخبار؟»، كنت أتحاشى الخوض في النقاش طويلاً لكوني مُقتنعًا بما أفعل.

صحافةٌ لا يُعوَّل عليها

دخلنا عام 2018 ولا يزال قليل من السوريين فقط يعرفون الصحافة الاستقصائية ولا يعوِّلون عليها، ربّما لأن القبضة الأمنية في البلاد تقزّم دورها، وقد اعتاد السوريُّون أن يجدوا في الصحافة السورية دعاية بيد السلطة الحاكمة.

اعتاد السوريُّون أن يجدوا في الصحافة السورية دعاية بيد السلطة الحاكمة - رويترز.

في عام 2006، كُسرت هذه القاعدة بعد أن دخلت «الصحافة الاستقصائية» إلى سوريا، بالطريقة ذاتها التي دخلت بها إلى معظم الدول العربية الأخرى، أي عبر أول شبكة عربية متخصّصة في الصحافة الاستقصائية «أريج». أنتجت «أريج» عدداً من التحقيقات الاستقصائية التي تُحاكي جوانب هامة في حياة السوريين ابتداء من عام 2006، حيث عالجت المواضيع أموراً خدمية وطبّية وكشفت جوانب فساد تهم السوريين.

كما درّبت عددا كبيرا من الصحفيين السوريين على مساقها «على درب الحقيقة»، وهو ما ساهم في بدء انتشار هذا النوع من الصحافة، وسط الرقابة العالية التي كانت تُفرض على وسائل الإعلام السورية.

بعد النزاع

طرق الربيع العربي أبواب عدّة دول عربية، وكانت سوريا واحدة منها، وعلى خلفية ذلك تأسّست عشرات المؤسسات الإعلامية السورية التي باتت تُعرف باسم «الإعلام البديل» أو «الإعلام الجديد»، غير أن هذه المؤسسات لم تقدّم أي شيء يُذكر في مجال الصحافة الاستقصائية المهنية حتى عام 2016، وبعده اقتصر العمل في هذا المجال على عدّة مؤسسات تُعدّ على أصابع اليد الواحدة.

بالمقابل، فشلت التجربة الأولى لإطلاق أول برنامج تلفزيوني استقصائي عبر التلفزيون السوري الرسمي الذي ينخره الفساد والواسطة والمحسوبية وصعود غير المهنيين فيه، حيث كان مقرّراً إطلاق برنامج يحمل اسم «نصف الحقيقة» عام 2015، ولكنه توقّف في ظروفٍ غامضة، دون أن يبث أي حلقة.

وفي عام 2015 أيضاً، خصّصت كلية الإعلام بجامعة دمشق -وهي الكلية الإعلامية الوحيدة في سوريا- مادة متخصّصة في الصحافة الاستقصائية حملت اسم «مواد استقصاء»، لكنها عبارة عن مساق من 20 محاضرة.

للحالة السورية خصوصية بغياب قانون النفاذ إلى المعلومات، وعدم وجود بيئة آمنة للعمل تحمي الصحفي من تهديدات الأطراف السورية. تصوير ريك فيندلر - غيتي.

تجارب سورية

في مطلع نوفمبر/تشرين الثاني 2016، أعلن عدد من الصحفيين الاستقصائيين السوريين -جُلّهم ممن تدرّبوا على هذا النوع الصحفي في شبكة «أريج»- عن إطلاق أول وحدة تحقيقات استقصائية سورية حملت اسم «سراج»، وهي اختصار لجملة «Syrian Reporting For Accountability Journalism».

وجاء تأسيس هذه الوحدة «بهدف إجراء نقلة جديدة تجاه خلق نوع جديد من الإعلام في سوريا، بحيث يكون مغايراً عمّا كان سائداً».. يشرح رئيس الوحدة محمد بسيكي. وأردف: «مع تعاظم الأحداث على الساحة السورية وظهور مستوى عال من الفساد لدى مختلف الجهات الفاعلة على الأرض السورية، تعزّز دورنا كصحفيين من أجل تسليط الضوء على ما يحدث في الأرض وعرضها على الشارع السوري والرأي العام العالمي"، موضحاً أن هدف «سراج» الأساسي هو «خلق الوعي لدى السوريين ومساعدتهم على اتخاذ القرار، وخاصة في مرحلة التحول الحالية التي تشهدها البلاد». واعتبر بسيكي أن للحالة السورية خصوصية تتمثّل في مزيد من الصعوبة بسبب غياب قانون النفاذ إلى المعلومات، وعدم وجود بيئة آمنة للعمل تحمي الصحفي من تهديدات الأطراف السورية التي تعتبره هدفا أساسيا لها إن كشف ما لا تريد، وهو ما جعل عمل الصحفيين الاستقصائيين في سوريا كمن يحفر في الحجر. واستدرك: «رغم هذا الواقع تمكنا قبل تأسيس سراج وبعدها من تحقيق خطوات مهمة ساهمت في وضع سكة للصحافة الاستقصائية".

وقال أيضاً «نحن الجيل الثاني الذي واكب الصحافة الاستقصائية في سوريا بعد عام 2010، وتمكّن من إدخال مستويات متطورة أكثر ممّا كان موجودا سابقاً»، موضحاً أنه بعد الاحتجاجات التي اندلعت عام 2011 توفّر هامش من الحرية، لكن المشهد ما لبث أن عاد إلى المربّع الأولى بعد أن علت أصوات الأسلحة، لكون جميع الأطراف السورية تسعى لقتل الصحافة الاستقصائية التي لا تخدم أي طرف ولا تنخرط في ماكينته الإعلامية. ولم تكن وسائل الإعلام السورية خارج المشهد، حيث انخرطت أيضاً في تجارب إدخال الصحافة الاستقصائية إلى مؤسساتها، ومن بينها راديو «روزنة»، وهو إذاعة سورية تأسست عام 2013 بهدف «تسليط الضوء على ما يحدث في سوريا بطريقة مهنية، مع إعطاء الأولوية القصوى في الأخبار والمواد الصحفية لصوت المدنيين».

وشاركت «روزنة» في كشف ملفات الفساد الخاصة بالجزء السوري ضمن تحقيقات «وثائق بنما» الشهيرة التي تفجّرت عام 2016، كما وضَّحت مديرة موقع الإذاعة ميس قات.

وقالت ميس إن «روزنة نشرت تحقيقاً ضمن 30 تحقيقاً عُرفوا باسم المغسلة الروسية التي تتحدّث عن تورّط شركات في الإمارات العربية المتحدة بملفات غسيل الأموال، كما أنجزت سابقاً عدداً من التحقيقات ضمن المجموعة السورية المستقلة للتحقيقات الاستقصائية، وتشارك حالياً بعدد من التحقيقات في مشروع، نحو صحافة عمق أخلاقية للصحفيين السوريين".

و»نحو صحافة عمق أخلاقية للصحفيين السوريين" مشروع أطلقته شبكة "أريج» للصحافة الاستقصائية مع مؤسسة الغارديان البريطانية ومنظمة دعم الإعلام الدولي، بهدف تمكين الصحفيين السوريين من إنجاز تحقيقات استقصائية بشكلٍ عميق.

وتُشير ميس إلى أن سوريا «تفتقر إلى تجارب استقصائية عميقة وقوية، كما تفتقر إلى صحفيين خبراء في هذا المجال"، لافتةً إلى أن الصحفيين السوريين دخلوا مجال العمل الاستقصائي في السنوات القليلة الماضية فقط. وعلى غرار روزنة، أدخلت وسائل إعلامية سورية أخرى الصحافة الاستقصائية إلى عملها، حيث شهدت السنتان الماضيتان عدة تجارب في هذا المجال، من أبرزها تجربة صحيفة «عنب بلدي» التي أطلقت وحدتها الاستقصائية في نوفمبر/تشرين الثاني 2016.

تحقيقات أحدثت أثرها

في عام 2014، أنجزتُ أوّل تجربة لي في الصحافة الاستقصائية بدعم من شبكة «أريج».. كنتُ حينها طالباً في السنة الرابعة بكلية الإعلام، وحاز التحقيق على جائزة «أفضل تحقيق استقصائي عربي عن فئة المطبوع» ضمن مؤتمر "أريج" السنوي السابع.

التحقيق تحدّث عن انتشار مافيات تنقلُ ملكية منازل المهجّرين والنازحين وتبيعها دون علمهم، وبعد نشره بعدة أيام تجاوبت وزارة العدل السورية مع التحقيق، وأصدرت تعميماً مخصّصاً لخطاب التحقيق، أغلقت من خلاله الثغرات التي تساعد المزوّرين، وبالفعل انخفض معدَّل الاستيلاء على العقارات بشكلٍ كبير.

تزوير وكالات سورية، تحقيق لموقع الاقتصادي.

في عام 2016، أنجزت شبكة "أريج" تحقيقاً استقصائياً بعنوان «أطفال بلا نسب»، وبعد فترة من نشره طُرحت فكرة إقرار مشروع قانون خاص برعاية الأطفال المجهولي النسب في سوريا.

وعلى غرار هذين التحقيقين، أثبتت عدة تحقيقات أخرى فاعليتها في تحقيق هدفها الأساسي المتمثّل في "تغيير الواقع وليس نقله وحسب".

مساندة

تشهد الصحافة الاستقصائية في سوريا مساندة من بعض المنظمات الدولية المتخصّصة في هذا المجال. وعلى غرار مشروع «نحو صحافة عمق أخلاقية للصحفيين السوريين" الذي يسعى لتدريب صحفيين سوريين على إنتاج تحقيقاتٍ استقصائية، تقوم "الشبكة العالمية للصحافة الاستقصائية" بمد يد العون للجهات والأفراد العاملين في هذا المجال.

وأطلقت هذه الشبكة قسماً عربياً منها، وهو مبادرة تهدف إلى تعزيز ونشر ممارسة الصحافة الاستقصائية بين الصحفيين في الشرق الأوسط وشمالي أفريقيا، وتعزيز البنية التحتية والتكنولوجيا التي تدعمها، وبناء شبكات تواصل مع الصحفيين المهتمين في المنطقة، وإيجاد فرص ارتباط مع زملائهم في جميع أنحاء العالم.

تقول محرّرة القسم العربي في الشبكة العالمية للصحافة الاستقصائية مجدولين حسن: "تصلنا طلبات من قبل العديد من المنظمات السورية المتخصصة في تطوير الصحافة، معظمها ترغب في تطوير عملها في هذا المجال بسبب الحرب والصراع الممتد منذ سنوات".

وتضيف «هناك جوانب غير محكية في الحرب السورية، وتتداخل الأطراف الضالعة بها، وترى المؤسسات السورية أن هذه الجوانب تستحق أن يعرفها العالم، وتعتقد أن الصحفي السوري الموجود في الميدان هو فقط من يمكنه أن يرويها».

وتابعت مجدولين «ما نحاول فعله كمنظمة هو ربط تلك المؤسسات السورية مع جهات عربية أو عالمية بحيث يعمل الطرفان على إنتاج التحقيقات الصحفية معاً أو بناء قدراتها عبر تقديم الاستشارات التدريبية التي تحتاجها، ومساعدتها لإيجاد مصادر تمويل يساعد على بناء قدراتها وضمان استمراريتها».

أطراف النزاع السوري تسعى لقتل الصحافة الاستقصائية.
تصوير: جورج أورفليان - رويترز.

شين باركر، مؤسس موقع نابستر ورئيس فيسبوك السابق، خلال أعمال قمة Web 2,0 في كاليفورنيا، أكتوبر/تشرين أول 2011. تصوير: روبرت غالبرايث - رويترز.

الصحافة الاستقصائية في عصر السوشيال ميديا

عمر مصطفى

مع ظهور الوسائط الاجتماعية أو السوشيال ميديا، بات لدينا كصحفيين مصادر للاستعانة بها أكثر من ذي قبل، مما يتطلب مهارات إضافية وأدوات جديدة تعيننا على التعامل مع هذا الزخم بشكل لا يتعارض مع القيم الأساسية للمهنة.

مرت الصحافة الاستقصائية عبر تاريخها بمراحل عديدة أثبتت خلالها دورها الحيوي في المجتمعات، فكانت صوت المواطنين وأداة لكشف ما يحدث في الظل وجلب المتهمين للعدالة. ومع ظهور الإنترنت وما صاحبه من طفرات تكنولوجية، ظهرت في الأفق فرص جديدة للصحافة الاستقصائية لمساعدتها على الاستمرار في لعب دورها المهم.. فرص ما زال الصحفيون والقراء حول العالم يستكشفون أبعادها وإمكاناتها عبر تطبيقات عصرية ومتطورة مثل الوسائط الاجتماعية.

عام 2015، ظهرت على الإنترنت 11,5 مليون وثيقة مسربة من إحدى شركات المحاماة في بنما تحمل تفاصيل حول عمليات غسيل أموال وتهرب من الضرائب يعود بعضها إلى سبعينيات القرن الماضي. الوثائق التي ظهرت على موقع ويكيليكس الذي يتيح للمستخدمين نشر وثائق سرية دون الكشف عن هوياتهم، كانت مادة لواحد من أهم التحقيقات الاستقصائية في التاريخ.

أكثر من 400 صحفي حول العالم تعاونوا سويا في استقصاء تفاصيل تلك المستندات المسربة في عمل جماعي استمر لمدة عام، نُشر في الوقت نفسه في 80 دولة، وهو ما كشف الغطاء عن عمليات غير قانونية لغسيل

ظهور تلك الوثائق والعمل عليها بهذه السرعة وإتاحتها لملايين الناس في نفس الوقت، بفضل مساحات حرة ومرنة للنشر والتفاعل والعمل الجماعي.

تصل إلى الجمهور والتي حل محلها نموذج جديد قائم على الحوار بين وسائل الإعلام والجمهور والمصادر.

في هذا السياق كثيرا ما يستدعي الحديث عن الوسائط الاجتماعية ما يُعرف بالشبكات

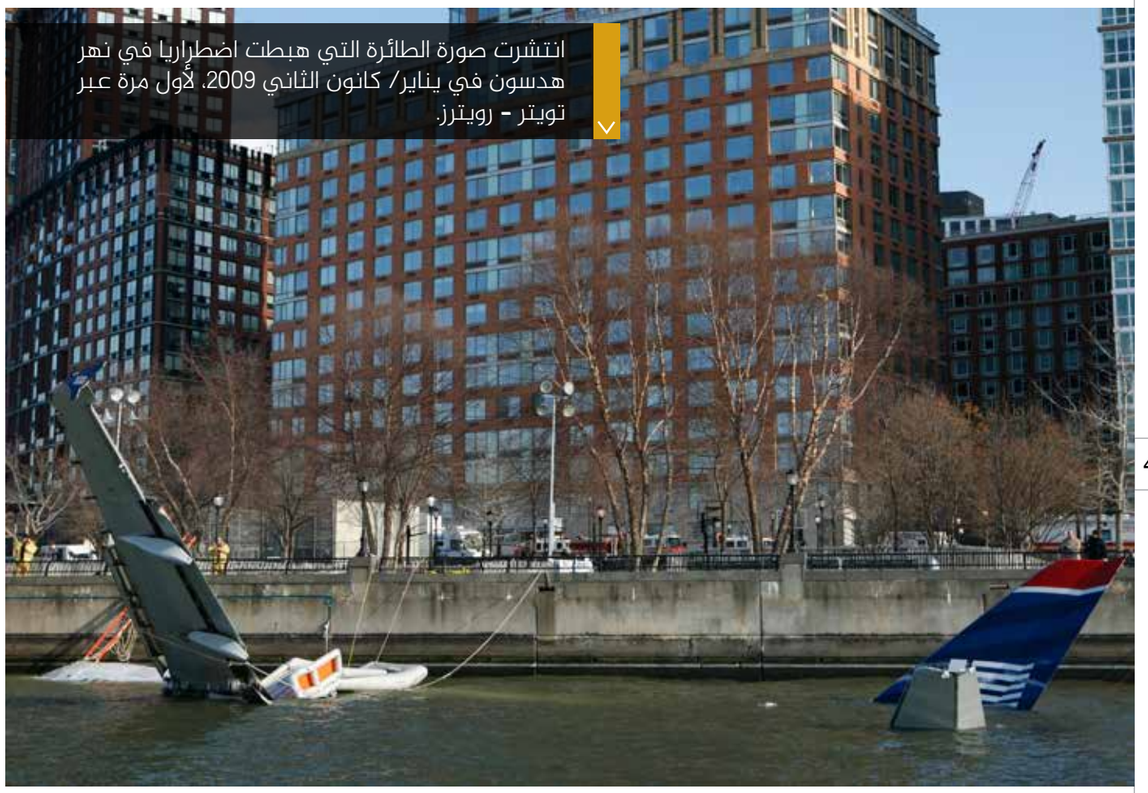

انتشرت صورة الطائرة التي هبطت اضطراريا في نهر هدسون في يناير/ كانون الثاني 2009، لأول مرة عبر تويتر - رويترز.

الأموال تورط فيها 140 سياسيا في أكثر من 50 بلدا، بعضهم على مستوى الزعماء، مما فتح الباب لتحقيقات موسعة في 90 دولة، وسط اهتمام كبير من الناس وصل حد المظاهرات في بعض الأحيان.

هذا الإنجاز كان يصعب كثيرا تحقيقه لولا وجود وسائط اجتماعية على الإنترنت أتاحت

عن أي تكنولوجيا نتحدث؟

تعتبر الوسائط الاجتماعية أحد أهم تجليات الجيل الثاني من الويب (Web 2.0) الذي كان له التأثير الأساسي في إلغاء نموذج «حراس البوابة» القديم، حيث كانت وسائل الإعلام المتحكمة في الرسائل التي

الاجتماعية وأشهرها فيسبوك، في خلط شائع مع مصطلح «الوسائط الاجتماعية» الأوسع والأعم، حيث تضم الوسائط الاجتماعية أي تطبيق رقمي يسمح للمستخدمين بإنشاء وتبادل المحتوى بأي شكل كان.

تحت هذا التعريف توجد أعداد ضخمة من التطبيقات على الشبكة تحمل الكثير من

التنوع في الأغراض والمزايا، أحد تفريعاتها هي الشبكات الاجتماعية التي تتيح للناس التواصل بشكل شخصي ونشر المحتوى والتفاعل معه. بالإضافة إلى ذلك توجد تفريعات أخرى عديدة مثل مواقع النشر الاجتماعية أو

ذي السرعات العالية والتكلفة المعقولة.. كل هذا أتاح لملايين الناس الولوج إلى الشبكة واستخدام تطبيقاتها وإثرائها بالمحتوى بشكل غير مسبوق.

مستحقة للاستقصاء، حيث تشكل العلاقة مع القراء أمرا لا غنى عنه. ويضيف هرناندیز أن الوسائط الاجتماعية ضخَّمت قدرتنا على الوصول إلى الناس وزادت من حجم شبكة مصادرنا، وهو ما يتطلب من الصحفيين الاستقصائيين قدرا جيدا من

رئيس الوزراء البريطاني الأسبق، غوردون براون، خلال مؤتمر صحفي إثر فضيحة نفقات نواب البرلمان البريطاني التي كشفتها الصحف البريطانية - رويترز.

ما يعرف بالمدونات، ومواقع الويكي مثل ويكيبيديا وويكيليكس، ومواقع نشر الوسائط المتعددة مثل يوتيوب وفليكر، وغيرها من المواقع المتخصصة في هوايات واهتمامات وتخصصات كثيرة.

أضف إلى هذا الطفرة الكبيرة التي حدثت في الأجهزة المحمولة الموصولة بالإنترنت

فرص كامنة

يقول الأستاذ بكلية يو.أس. سي أينبرغ للصحافة روبرت هرناندیز إن الصحفيين لو اتصلوا بمجتمعاتهم عبر الويب الاجتماعي واندمجوا في الحوار وشجعوه، سيكونون أكثر قدرة على الحصول على معلومات تفيد قصصهم وتكون

التواجد والتفاعل في هذه الوسائط سيؤتي أكله **يوما ما**.

لقد بات المحتوى الذي يُنتجه المستخدم معينا لا ينضب من الأفكار والأخبار والآراء، فالكثير من القصص الصحفية المهمة بدأت بتغريدة على تويتر أو بمنشور على فيسبوك أو تدوينة. طائرة الخطوط الجوية

الأميركية التي هبطت اضطراريا في نهر هدسون في يناير/ كانون الثاني 2009 كان الحادث الذي عرفه العالم لأول مرة عبر صورة نشرها على تويتر شخصٌ كان موجودا على قارب قرب مكان هبوط الطائرة، وهذا مجرد مثال للكثير من الأخبار وأفكار التحقيقات الاستقصائية التي تظهر أول ما تظهر على المواقع الاجتماعية ويعمل عليها الصحفيون بعد ذلك.

إلى جانب أدوات البحث التقليدية مثل غوغل، باتت المواقع الاجتماعية على اختلاف أشكالها وأغراضها أدوات جديدة للبحث عن الناس وفيما ينشرونه من محتوى يفيد في العمل الصحفي بعد التحقق منه. واستخدام إمكانات البحث على تويتر أو فيسبوك أو إنستغرام أو يوتيوب يأتي بنتائج مختلفة تماما عما يمكن أن يحصل عليه الصحفي من البحث على محركات البحث التقليدية.

كذلك بات بإمكان الصحفيين ممن يعملون في مؤسسات صحفية أو بشكل مستقل؛ نشر ما ينتجونه من تحقيقات استقصائية عبر المدونات أو الشبكات الاجتماعية مثل فيسبوك والوصول إلى القراء في أي مكان من العالم بسهولة وتكلفة زهيدة، والاستعانة بردود أفعالهم لاستكمال القصة أو تعديلها.

يقول مؤلف كتاب «نحن الميديا» دان غيلمور الذي عمل صحفيا استقصائيا لفترة من حياته: «بعد كل قصة استقصائية جيدة، يتلقى الصحفي عادة مكالمات تخبره بأن القصة عظيمة، ولكن فاتك كذا وكذا». ويوضح غيلمور أن أفضل نتيجة من تحقيق استقصائي قد تأتي عبر الإعلان أن القصة يتم العمل عليها، و«الكثير مما سيأتي عبر حشد المصادر سيكون بلا قيمة، والبعض حتى سيقودونك إلى الطريق الخاطئ، ولكن في الوقت ذاته الكثير من الأدلة ستأتي عبر هذه الطريقة».

كما يمكن للصحفيين اليوم العمل بشكل جماعي ومنظم على الإنترنت بفضل أدوات سهلة ومتاحة مثل تطبيق «سلاك» ومجموعات فيسبوك، وتطبيقات الحوسبة السحابية مثل غوغل درايف، وهي الأدوات التي تتيح للصحفيين التواصل وتنظيم العمل خاصة في التحقيقات الاستقصائية التي تتطلب قدرا عاليا من التواصل في غرفة الأخبار.

المراقبة وحشد المصادر

في 2009 حصلت صحيفة الغارديان البريطانية على قرابة نصف مليون وثيقة ذات صلة بمصروفات وإنفاق أعضاء البرلمان البريطاني خلال 4 سنوات. كانت هذه فرصة ممتازة لمعرفة الكثير عن التجاوزات التي ربما حدثت في تلك المصروفات، ولكن العدد الكبير للوثائق قاد الصحيفة إلى فكرة الاستعانة بالقراء من أجل فحص وتدقيق تلك الوثائق، وهي الدعوة التي لبَّاها أكثر من 27 ألف قارئ للصحيفة على الإنترنت فأنجزوا تلك المهمة.

ما فعلته الغارديان يسمى «حشد المصادر» (crowdsourcing)، وهو دعوة الناس للمشاركة في مهمة صحفية مثل جمع الأخبار، جمع أو تحليل البيانات، عن طريق دعوة موجهة أو مفتوحة للمشاركة في التجارب الشخصية أو المستندات وغيرها بالاستفادة من تطبيقات الويب الاجتماعي، وهي الطريقة التي تستخدمها منذ سنوات مؤسسات إعلامية عديدة حول العالم من أجل الاستفادة من الجمهور كمصدر للمحتوى بشكل منظم، وهو ما أسفر عن الكثير من الإنجازات الصحفية. ويتم استخدام طرق وأدوات عديدة للتفاعل مع الجمهور وإشراكه مثل مجموعات فيسبوك ومواقع استطلاعات الرأي مثل سيرفي مانكي وغيره.

الصحفي الاستقصائي في الغارديان بول لويس عمل عام 2010 على قصة حول وفاة أحد المرحَّلين على طائرة من بريطانيا إلى أنغولا، حيث تعرض الحراس المرافقون للانتقاد بسبب معاملتهم القاسية. وللعثور على شهود عيان رأوا ما حدث على الطائرة، غرَّد لويس على تويتر سائلا أي شخص كان على الرحلة رأى ما حدث مستخدما وَسمًا (هاشتاغا) باسم الضحية، وحصل بالفعل على ردود تفيد بأن الرجل كان يطلب المساعدة طوال الرحلة ولم يحصل عليها، وساهم ذلك في كشف ما حدث للرأي العام والسلطات.

يقول المحاضر في الصحافة الرقمية بجامعة برمنغهام سيتي بول برادشو: «إن أراد المحرر استخدام صحافة حشد المصادر، فهذا يتطلب علاقة قوية كفاية بين الصحفي ومجتمعه». برادشو كان من أوائل الصحفيين الذين استعانوا بالوسائط الاجتماعية على الإنترنت لحشد الناس، حيث أطلق عام 2009 موقعا أطلق عليه اسم «ساعدني لأتقصى»، وهو الموقع الذي أنشئ من أجل مساعدة الناس والصحفيين على تقصي إجابات أسئلة ذات علاقة بالاهتمام العام، وكان وسيلة لإنجاز العديد من التحقيقات الاستقصائية الناجحة آنذاك.

طريقة أخرى للاستفادة من محتوى الجمهور وهي بمراقبة نشاطهم العفوي على المواقع الاجتماعية، وإعادة استخدام هذا المحتوى والعمل عليه والتحقق منه هو ما يسمى «تنضيد المحتوى» (content curation). وتوجد الكثير من الأدوات المدفوعة والمجانية التي تساعد في عملية المراقبة الدائمة هذه، مثل قوائم تويتر وتطبيق تويت دِك، وتطبيق «IFTTT» الذي يتيح صنع وصفات من المهام ذات الصلة، وتطبيق Buzz Sumo وغيرها الكثير.

كيف تغيرت المهنة؟

السؤال الآن: هل غيّرت التكنولوجيا من الصحافة الاستقصائية؟ وبأي طريقة؟ في الواقع أن الصحافة في جوهرها لم تتغير بعد وجود الإنترنت وتجلياته مثل الوسائط الاجتماعية، فما زال الصحفيون يجمعون المعلومات من المصادر ليعرفوا حقيقة الوضع حسب ما تيسر لهم من مصادر، وما زالوا بحاجة إلى التواصل مباشرة مع مصادرهم وجها

مراقبة نشاط محتوى الجمهور على المواقع الاجتماعية والتحقق منه يساعد في إنجاز العمل الاستقصائي.
تصوير: بيتر ماكديارميد - غيتي.

يخضع الصحفي الاستقصائي لكثير من الضغوط، إذ عليه فلترة وتنظيم المعلومات التي يستخرجها من مواقع التواصل الاجتماعي.

لوجه، فالمهارات الأساسية باقية لم تتغير. الجديد مع الوسائط الاجتماعية أنه بات لدينا كصحفيين مصادر للاستعانة بها أكثر بكثير من ذي قبل، مما يتطلب منا مهارات إضافية وأدوات جديدة تعيننا على التعامل مع هذا الزخم بشكل لا يتعارض مع القيم الأساسية للمهنة.

يحدث هذا بينما تضع الوسائط الاجتماعية على الصحفي الاستقصائي الكثير من الضغوط، بجعله يراقب عددا ضخما من الحسابات والصفحات في الوقت نفسه، قد يحمل الكثير من المحتوى الذي لا يحتاجه الصحفي، مما يتطلب عملية مستمرة من الفلترة والتنظيم، مع احتياجه أيضا إلى استخدام أدوات مختلفة لمراقبة كل منصة من المنصات الاجتماعية على حدة.

فكما أضافت الوسائط الاجتماعية منافذ جديدة للصحفيين، أضافت عليهم عبء مراقبة تلك المنافذ باستمرار وتنظيم ما يأتي منها والتحقق منه. فهذه الوسائط قد تكون مساحة ممتازة لإيجاد الأفكار والمصادر، لكنها أيضا ملجأ مثالي لمروجي الشائعات وأصحاب المصالح ممن يعملون بشكل فردي أو لحساب جهات منظمة كالشركات والمنظمات والحكومات.

ولعل التحقيقات الاستقصائية من أكثر القوالب الصحفية التي تحتفظ للصحافة بأهمية وجودها في عصر الوسائط الاجتماعية، فالأخبار لم تعد حكرا على وسائل الإعلام وبات الناس يساهمون في صناعتها، لتأتي أهمية الصحافة فيما بعد في التقصي والتحقق. ولهذا تعد التحقيقات الاستقصائية نموذجا لما ينبغي على وسائل الإعلام العمل عليه من إضافة عمق وسياق واضح للأحداث وربطها ببعض لتبقى مفيدة وذات تأثير على حياة الناس. والفرصة هنا تكمن في الاستفادة من سمات تلك الوسائط الجديدة من سرعة وانتشار ومرونة في العرض وتنوع في أشكال المحتوى، إلى جانب الاستفادة من وجود التكنولوجيا في جيوب وأيادي الناس والسرعة الكبيرة في اتصالهم بالإنترنت.

ليبيا.. حظا أوفر في الاستقصاء

خلود الفلاح

لم يكن العام 2017 عاما استقصائيا كما أرادت المؤسسة الليبية للصحافة الاستقصائية في الجمهورية، فالمؤسسات العالمية المتخصصة في دعم المشاريع الاستقصائية من مراكش إلى البحرين قد خذلتهم.

جلال عثمان، رئيس مجلس إدارة المؤسسة الليبية للصحافة الاستقصائية.

وافقني الصحفي جلال عثمان الرأي بشأن الطفرة المهنية التي حدثت في الإعلام الليبي اليوم. وجلال هو رئيس مجلس إدارة المؤسسة الليبية للصحافة الاستقصائية التي تأسست عام 2015، وأعيد تنظيمها واختيار مديرها التنفيذي ورئيس جمعيتها العمومية عام 2017، بهدف نشر صحافة الاستقصاء في ليبيا.

بيد أن جلال أوضح أن تلك الطفرة حدثت أيضا في أغلب الدول التي شهدت تغيرات سياسية، «إذ إن مرحلة الخروج من النظام الشمولي عادة ما يصاحبها انفجار إعلامي.. حدث هذا في روسيا إبان انفراط عقد الاتحاد السوفياتي، وبعد سقوط نظام صدام حسين في العراق. وهذه الطفرات تخمد مع مرور الوقت، ففي ليبيا بعد سقوط نظام القذافي عام 2011 ظهرت أكثر من 350 صحيفة، ثم سرعان ما اختفت جميعها.. اليوم في ليبيا لا توجد أي جريدة يومية».

طرحتُ موضوع التقرير الذي أنجزته شبكة السي.أن.أن والمتعلق بتجارة الرقيق في ليبيا؛ كتقرير استقصائي أنجزته تلك المؤسسة العالمية، لكن كان لجلال رأي آخر، إذ أوضح أنهم كمؤسسة تابعوا التقرير بعين المتقصي وتواصلوا مع عدة جهات رسمية، ولم يجدوا أي دليل على فرضية التقرير، حتى إن أحد المصادر أفاد بأن مراسلة الشبكة لم تصور مشهد المزاد وإنما جلبته معها، وجاءت لتتقصى الموضوع..

مجموعة من الأطفال الليبيين المصابين بمرض الإيدز في مشفى بغرنسا مع طبيبهم المعالج، حيث شكلت قضيتهم بدايات الصحافة الاستقصائية في ليبيا - رويترز.

«أي صحفي مبتدئ يعرف أن أسلوب العرض والتناول كان فقيراً للغاية، ولم يقدم أي دليل على فرضية وجود سوق للرقيق في ليبيا».

خذلان المؤسسات المعنيّة

رغم إطلاق المؤسسة مبادرة تسمية العام 2017 عاماً للصحافة الاستقصائية، فإن ذلك لم يتحقق.. «اعتمدنا في وضع تلك الخطة على وعود من قبل عدد من المؤسسات الدولية، التي أقل ما يمكن أن نقول إنها خذلتنا.. بعض هذه المؤسسات متخصصة في الاستقصاء، وتدعم الصحافة الاستقصائية من مراكش إلى البحرين، ولكن عندما يتعلق الأمر بليبيا فجميع المبادرات أجهضت، ولا ندري ما السبب.. قد يحتاج الأمر إلى تحقيق استقصائي هو الآخر».

ويتابع: أنجز زميلنا معتز ماضي المدير التنفيذي للمؤسسة أول تحقيق استقصائي ليبي، وكان عن فضيحة غسل الأموال، المسماة بالمغسلة الروسية، وكان ذلك تحت إشراف شبكة أريج، بينما شارك الصحفي ماهر الشاعري في التحقيق الاستقصائي المرئي «رحلة الكورنيت» الذي تناول فيه تهريب صواريخ الكورنيت من ليبيا إلى مصر. ولدينا زملاء آخرون يعملون على تحقيقات مختلفة، فكما تعلمين التحقيقات الاستقصائية تستغرق أشهرا، وتصل إلى سنة كاملة من العمل أحيانا».

معايير الصحافة الاستقصائية

يرفض عثمان تلميحات البعض بأن الصحافة الاستقصائية ليست مشروعا جديدا في الصحافة الليبية، وأن هناك الكثير من التحقيقات الاستقصائية أجريت أيام النظام السابق.. «هناك مفاهيم مختلفة للصحافة

الاستقصائية، فالبعض يعتبر أن تحقيقاً استغرق يومين حول التسول أو الشعوذة هو تحقيق استقصائي، وهذا غير صحيح.. هناك تعريف ومعايير محددة للصحافة الاستقصائية، منها: أن يقام التحقيق على فرضية واضحة ومختصرة لجملة قصيرة، وأن يعتمد على مصادر دقيقة؛ فلا مجال للافتراضات أو المعلومات غير المدعومة بوثائق. ويجب عرض التحقيق الاستقصائي على محام متخصص في قضايا النشر قبل عرضه أو نشره.. شبكة أريج لديها دليل مهم شارك في إعداده عدد من الصحفيين العرب والدوليين، ويمكن الاسترشاد به.. أنا نفسي كتبت وشاركت في عشرات التحقيقات قبل العام 2011، ولكنني لا أعتبرها تحقيقات استقصائية لأنها كانت أقرب إلى التقارير، مع تقديري لكل الجهود السابقة التي أرى أنها شكلت بدايات الاستقصاء في ليبيا، وأذكر منها تقرير الزميل خالد المهير الذي نشر في مجلة (لا) عن أطفال الإيدز، أو سلسلة التقارير التي أجراها الزميل عبد الله الوافي حول الشعوذة».

وأشار عثمان إلى أهمية استخدام التكنولوجيا في التحقيقات الاستقصائية، ذاكرا ما قام به الصحفي الذي أجرى تحقيقاً استقصائياً عن استخدام بشار الأسد للغازات السامة، حيث استخدم بعض البرامج والتطبيقات التي أثبت بها اتجاه الصواريخ.. وعلق بالقول «إذا كان استخدام التكنولوجيا الحديثة في الصحافة سنة، فهي في صحافة الاستقصاء فرض».

حماية صحفية

أشار جلال عثمان إلى أننا يجب أن يكون سؤالنا اليوم: من يحمي الصحفي بصفة عامة؟ فما ينطبق على أي صحفي، ينطبق على الصحفي الاستقصائي، فالصحافة ليست مدينة ألعاب مائية نذهب إليها للاستجمام، وإنما هي حقل ألغام محفوف بالمخاطر. وحتى في الدول الأوروبية يتعرض الصحفيون للتهديد والقتل، كما حدث للصحفية الاستقصائية المالطية «دافني كروانا غاليزيا» إحدى أشهر الصحفيات الاستقصائيات في مالطا، وقد قتلت أواخر العام 2017 بسيارة مفخخة، بسبب تحقيقاتها حول فساد سياسيين ومتنفذين في مالطا. ومع ذلك، نسعى لتأصيل حقوق الصحفي الاستقصائي، التي من أهمها حق النفاذ إلى المعلومات، ومنع السجن في قضايا الصحافة.

ويتحدث عثمان عن نخبوية صحافة الاستقصاء في الوطن العربي، «ففي ليبيا لا نستطيع أن نتحدث عن مستقبلها قبل الحديث عن حاضرها، لأن واقع الصحافة الاستقصائية في ليبيا ما زال مجرد مبادرات، ولم يتشكل بعد.. لقد سعينا من خلال تأسيسنا لهذه المؤسسة إلى إيجاد البيئة المناسبة لهذا النوع من الصحافة. وفي اعتقادي، ليبيا تمتلك عددا من الصحفيين الموهوبين الذين يمكنهم إيجاد مستقبل واعد للاستقصاء».

ويشبه عثمان الصحافة بالعشبة البرية التي تتأقلم مع أسوأ الظروف، وتزدهر أكثر في المجتمعات التي تكفل الحريات العامة والتعددية، والتي تستطيع فيها تأمين نفقاتها.. «في ليبيا تواجهها الكثير من التحديات غير الصراعات المسلحة، كالظروف الأمنية في عدد من المناطق، والتضييق على الحريات العامة في مناطق أخرى، وكذلك الظروف الاقتصادية».

لكن الضوء المطل من النفق -بحسب عثمان- هو مرونة العمل في الصحافة الاستقصائية، «فالصحفي الاستقصائي غير مهتم بتغطية المناشط والأحداث العامة، وإنما يعمل على ملفات خاصة ومواضيع غير آنية، وهذا يجنبه الاحتكاك بمراكز القوة أو السلطة».

يعتبر عثمان أن الانطلاقة الحقيقية للمؤسسة الليبية للصحافة الاستقصائية ستكون في هذا العام، أي 2018، حيث «تحاول المؤسسة التشبيك مع عدد من وسائل الإعلام الليبية لنشر تحقيقاتنا، والمؤسسة متفائلة حيال هذا الأمر، لأن عددا كبيرا من وسائل الإعلام الليبية خارج سلطة الدولة، وتبث أو تنشر من الخارج».

الصحفية المالطية دافني كاروانا غاليزيا، التي دفعت حياتها ثمنا لكشفها الحقيقة في قضية أوراق بنما. تصوير: دارين زاميت لوبي - رويترز.

تواجه الصحافة الاستقصائية في ليبيا الكثير من التحديات كالصراعات المسلحة، والظروف الأمنية السيئة في عدد من المناطق. تصوير: إسماعيل زيتوني - رويترز.

تحليل الأرقام والبحث عن الحقيقة

محمد ناموس

يعود تاريخ الصحافة الاستقصائية إلى عام 1690، مع صدور أول صحيفة في الولايات المتحدة وهي «Publick Occurrences» لمحررها بنيامين هاريس، وهو من الناشرين المثيرين للجدل في تلك الحقبة، إذ كشف عبر التحقيقات الواردة في الأعداد الأولى من الصحيفة عدة قضايا في مطلع القرن العشرين، برز عدة صحفيين قادوا حملات صحفية مهمة على نطاق واسع ضد الفساد، ووصفهم الرئيس الأميركي ثيودور روزفلت بالصحفيين المنقبين عن الفساد.

وبُنيت معظم التحقيقات التي نشروها بعد جمع البيانات على وثائق رسمية مدققة من قبل خبراء، فكان لهم الفضل في تحقيق إصلاحات ديمقراطية في أميركا.

ومن أكثر التحقيقات الاستقصائية المشهورة، تحقيق الصحفية أيد تاربيل التي كشفت من خلاله احتكار شركة «استاندارد» للبترول، الأمر الذي دعا الكونغرس إلى إصدار قانون شيرمان المختص بمحاربة أكثر الاحتكارات إثارة للخوف على مستوى الولايات المتحدة.

واعتمدت عدة تحقيقات استقصائية على صحافة البيانات أثناء البحث، لكن لم تُخصَّص ذاك الوقت ضمن مسمى معين، إذ لم يكن آنذاك مصطلح خاص بهذا النوع من الصحافة.

يقول مدير شبكة الصحافة الاستقصائية العالمية ديفد كابلن، أحد المخضرمين في الاستقصاء: «إن استلام ملف من مصدر رسمي ذي نفوذ وكتابته ونشره في اليوم ذاته لا يقع في خانة الصحافة الاستقصائية».

ويعتبر كابلن أن الصحافة الاستقصائية تتطلب المزيد من عمليات البحث بعمق والتركيز على استخدام التقنيات تتعلق بالفساد، واعتمدت التحقيقات على الوثائق التي تؤكد النتائج التي وصل إليها الصحفيون، وهذا أساس بناء أي تحقيق استقصائي.

« تعتمد صحافة البيانات على التصميم وعلوم الحاسوب والإحصاء، فهي مجموعة متداخلة من الكفاءات في مجالات عدّة. وتغطي صحافة البيانات اليوم عدة أنواع من الكتابة الصحفية، حيث تُعتمد في التقارير والتحقيقات ويستفيد منها الصحفيون في التحقيقات الاستقصائية.»

تعتمد صحافة البيانات على التصميم وعلوم الحاسوب والإحصاء، فهي مجموعة متداخلة من الكفاءات في مجالات عدّة.

الاستقصائية المرفقة بالبيانات. وهذا لا يوجد في صحافة البيانات، إذ إن الأخيرة تتطلب أرقاماً مبعثرة تعالج موضوعاً معيناً، ويتم التأكد من صحتها لتأتي المرحلة الثانية وهي التحليل، ومن بعدها النشر عبر صورة تجمع معلومات تخص الموضوع.

تاريخ صحافة البيانات

مع عصر الثورة الرقمية التي حصلت في أنحاء العالم، وانتشار الإنترنت، إضافة إلى كمية البيانات الهائلة المرفوعة على محركات البحث، بدأت صحافة البيانات تأخذ طابعاً مستقلاً.

الصحفي الأردني المتخصص بالصحافة الاستقصائية حمود حسين يعتبر أن «البيانات المفتوحة مصدر قليل الاستخدام من قبل الصحفيين، فنسبة 90٪ من البيانات المفتوحة حول العالم غير مستخدمة، وفق رأي الصحفي الاستقصائي مارك هنتر».
يؤكد حسين أن تلك المشكلة شائعة في الدول العربية، حيث يعتقد معظم الصحفيين في المنطقة أن ثمة الكثير من المعلومات والبيانات مخفية ولا يمكن الحصول عليها إلا برشوة موظف أو الانتظار لمدة طويلة أمام روتين الوزارات والمؤسسات الرسمية.

ويضيف «في الوقت الذي ينتظر فيه الصحفي أمام أبواب حراس البوابات الإعلامية في الوزارات أملا في الحصول على معلومات، فإن تلك المعلومات أو الأرقام المتوفرة على الإنترنت في موقع ما من مواقع الوزارات أو المؤسسات أو مراكز الإحصاء الرسمية، أو هي متوفرة كنسخ ورقية منشورة فيما يعرف بالجريدة الرسمية أو المكتبات الحكومية العامة أو الأبحاث العلمية في الجامعات».

بات في مقدور الصحفي الاستقصائي اليوم بناء تحقيقات استقصائية لا يمكن توقعها من بيانات مفتوحة حتى في الدول التي يعتقد أنها تتكتم على المعلومات، حسب حسين.

ندرة المصادر

تعتمد صحافة البيانات على التصميم وعلوم الحاسوب والإحصاء، فهي مجموعة متداخلة من الكفاءات في مجالات مختلفة. وتغطي صحافة البيانات اليوم عدة أنواع من الكتابة الصحفية، حيث تُعتمد في التقارير والتحقيقات ويستفيد منها الصحفيون، خاصة أنها تعتبر قاعدة بيانات منظمة تحمل في مضمونها أرقاماً مهمة تصلح لأن تكون أخباراً.

ومن أولى الصحف التي بدأت العمل ضمن مجال «صحافة البيانات»، كانت صحيفة الغارديان التي أطلقت عام 2009 مشروعاً خاصاً بصحافة البيانات حمل اسم «Datablog». لكن يبدو أن قلة استخدام الصحفيين الاستقصائيين لموارد مبنية على أساس صحافة البيانات يعود سببه إلى ندرة المصادر أحياناً في المنطقة العربية.

يقول الصحفي حسين حول ذلك «حسب تجربتي، نحتاج في كثير من الحالات إلى تسجيل معين أو تقديم طلب ما أو القيام بمقارنات، وغيرها من الحواجز التي تضعها السلطات بشكل مقصود أو غير مقصود، أو عدم قدرة الصحفيين على قراءة البيانات واستنتاج قصص استقصائية منها، وهذه من أسباب ندرة المصادر».

ولحسين تجارب استقصائية معتمدة على البيانات منها كشف شركات سرية لشخصيات سياسية أو كشف شركات تحصل على عطاءات حكومية وهي ضمناً مملوكة لمسؤول أو لقريبه.

كما ساهم في إنجاز تحقيق استقصائي بالتعاون مع سبعة صحفيين أوروبيين تتبع فيه بالبيانات المفتوحة أسماء 17 باخرة تساهم في نقل اللاجئين غير الشرعيين إلى أوروبا، وفي الوقت ذاته تساهم في تهريب المخدرات والأسلحة، وقد كانت بيانات الشركات والشخصيات التي تملك هذه السفن مفتوحة، لكنها تحتاج إلى معرفة كيفية الوصول إليها في دول أفريقية.

وكانت مسارات السفن معروفة عبر بيانات مفتوحة من مراكز تتبع حركة السفن حول العالم، ومع تتبع الشحنات والسفن تم القبض عليها والكشف في هذا التحقيق عمن يقف وراءها والدول التي سهلت مرورها أو لم تكشف ذلك.

أهمية صحافة البيانات

استخدمت صحافة البيانات في بعض التحقيقات بشكل رئيسي، خاصة إن تضمن التحقيق وثائق كثيرة تحتوي على أرقام تحتاج لمقاطعة من أجل الوصول إلى نتائج جديدة مثل «وثائق بنما».
وتعتبر «وثائق بنما» من أكبر التحقيقات التي ضجت على مستوى العالم، سيما أنها تضمنت 11,5 مليون وثيقة مفصلة تكشف عن عمليات غسل أموال تقدر حجمها بالمليارات.. تسربت الوثائق عن طريق شركة محاماة ووصلت إلى الاتحاد الدولي للصحفيين المحققين، وعملت على تحليلها 107 وسيلة إعلامية دولية متنوعة.

واعتمد تحليل الوثائق على صحافة البيانات، خصوصا أنها كانت تتضمن أرقاماً تعود لـ210 ألف شركة ظلت تتخفى في 21 بلداً وولاية حول العالم، من أجل تحقيق التهرب الضريبي.
وفي النهاية تكلل جهد الصحفيين الذين عملوا على إنجاز مشروع «وثائق بنما» بالفوز بجائزة «تحقيق العام» عام 2016، ضمن سلسلة جوائز صحافة البيانات «Data Journalism Awards» في فيينا.
من جهة أخرى، استعانت عدة تحقيقات استقصائية نشرت على موقع «أريج» المختص بإعداد التحقيقات الاستقصائية؛ بصحافة البيانات، حيث حلل الصحفيون الأرقام التي تمكنوا من الحصول عليها ضمن المواضيع التي تتناولها تحقيقاتهم الاستقصائية.

ومن أولى الصحف التي بدأت العمل ضمن مجال «صحافة البيانات» كانت صحيفة الغارديان، حيث أطلقت عام 2009 مشروعاً خاصاً بصحافة البيانات حمل اسم «Datablog» - غيتي.

ولعل من أبرز الأمثلة التي يمكن أن نجد فيها استخداماً لصحافة البيانات، تحقيق «الطريق السالكة إلى تونس لغسل الأموال المشبوهة»، وتحقيق «مؤسسات مقيمة في الإمارات العربية المتحدة تتورط بالمغسلة الروسية»، وتحقيقات عديدة أخرى.

الفساد وصحافة البيانات

لعل أكثر الميادين التي تدخل فيها صحافة البيانات، هي القضايا الاقتصادية التي تتضمن أرقاماً كثيرة مبعثرة تحتاج إلى تنظيم وتحليل. وتبرز أهمية الاستعانة بصحافة البيانات أثناء تناول مثل هذه القضايا في النتائج التي سيتم الوصول إليها، كحجم الأموال المسروقة أو عدد الوثائق المخفية أو عدد الشخصيات المتأثرة.. إلخ.

وحول مدى صعوبة الوصول إلى مصادر البيانات بالنسبة للصحفيين الاستقصائيين، يجيب الصحفي الخبير بمجال صحافة البيانات عمرو العراقي لمجلة «الصحافة»: «لا يوجد شيء اسمه مستحيل أو صعب فيما يخص البحث للوصول إلى البيانات، حيث يمكن للصحفي أن ينشئ قاعدة بيانات خاصة به من خلال مشاهداته وملاحظاته، فإما أن يذهب الصحفي إلى المصادر الحكومية ويطلب الحصول على البيانات، أو يعتمد في ذلك على الأخبار».

ويتابع «تتميز القصص الصحفية المدفوعة بصحافة البيانات أنه يمكن بناؤها دون الاستعانة بمصدر، فيمكن مثلا رصد مخالفات مالية للمسؤولين دون أن أذهب إليهم وأطلب الحصول على بيانات متعلقة بالموضوع».

حاز تحقيق «وثائق بنما» الذي اعتمد على تحليل 11,5 مليون وثيقة، عدة جوائز صحفية، منها جائزة بانن الألمانية، 27 أبريل/نيسان. تصوير أليكساندر كورنير - غيتي.

كشف تحقيق استقصائي عبر تتبع حركة السفن من خلال بيانات مفتوحة، تورط 17 باخرة في تهريب السلاح والمخدرات ولاجئين غير شرعيين. تصوير: كارل كورت - غيتي.

ومن وجهة نظر العراقي فإن دور صحافة البيانات مرتبط بمجال الصحافة الاستقصائية ويعتمد على طبيعة الموضوع المتناول.. «فالصحفي دائماً يسأل لماذا حصل ذلك، ويبدأ ببناء تقاريره على أساس عدة أسئلة، بينما في صحافة البيانات يعتمد العمل على جمع البيانات وتدقيقها ومن ثم تحليلها، فهي مجموعة أدوات ومهارات يمكن للصحفي تعلمها».

ويوضح «فيما يخص العلاقة بين الاختصاصيْن، لا يتطلَّب العمل الصحفي أن يكون هناك اختصاصات، فالصحفي الشامل لا بد أن يتعلم جميع المهارات، كضوابط العمل ومهاراته وإيجاد فرضية والتحقق منها، والتعامل مع الأرقام والبيانات المتوفرة، وأنا لا أميل إلى التمييز بين التخصصين».

يمكننا القول اليوم بأن صحافة البيانات تتناول مواضيع أكثر من الصحافة الاستقصائية، فليست كل قضية تدخل في مضمار الصحافة الاستقصائية حتى وإن كانت ملفات صادرة من جهات رسمية وتمت إعادة كتابتها ونشرها.

ورغم ارتباط هذين النوعين من الصحافة ببعضهما البعض وأهمية تحويل الأرقام والبيانات الصادرة عن التحقيق الاستقصائي إلى صور رقمية ورسومات بيانية، تبقى صحافة البيانات أشمل وأوسع من الصحافة الاستقصائية التي تحتاج إلى فرضية وإثباتها، فالبيانات موجودة بين أيدينا وما علينا إلا البحث المعمّق عنها للوصول إليها وتحويلها إلى طريقة عرض بصرية متميزة.

غرف الأخبار.. موسم الهرولة إلى بيت الطاعة الرقمي

عثمان كباشي

تشير إحدى نتائج المسح أن العديد من غرف الأخبار في العالم بحاجة إلى المزيد من الإجراءات للدخول إلى العصر الرقمي، الصورة من غرفة أخبار الجزيرة. تصوير توماس كوهلير - غيتي.

كتب جاكوب1998في عام نيلسن -الاسم الأبرز في مجال دراسات استخدام الإنترنت- مقالا بعنوان «نهاية الإعلام التقليدي»، خلص فيه إلى أن معظم وسائط الإعلام «التقليدية» ستتلاشى وتستبدل بوسيط شبكي متكامل في فترة تتراوح بين خمس وعشر سنوات (1).

نحن نعيش حاليا نبوءة نيلسن التي أطلقها قبل عشرين عاما، والتي كان من بينها دعوته الصحفيين العاملين في وسائل الإعلام التقليدية إلى تطوير مهاراتهم حتى تتواءم مع ما أسماه العصر التفاعلي.

ولكن يبدو أن القليلين فقط من استمعوا إلى الرجل وعملوا بنصيحته، ففي مسح أجراه (ICFJT)المركز الدولي للصحفيين مؤخرا للتعرف على وضع التكنولوجيا في غرف الأخبار بعنوان «The State of Technology in Global Newsrooms» ، كانت النتيجة أن العديد من غرف الأخبار في العالم لا تزال بحاجة إلى المزيد من الإجراءات للدخول إلى العصر الرقمي (2).

ويمكن إيجاز نتائج المسح الذي شمل معظم مناطق العالم -ومنها الشرق الأوسط وشمال أفريقيا- في الآتي:

- خبراء التكنولوجيا لا يزالون عملة نادرة في غرف الأخبار، فنحو 5٪ فقط من العاملين فيها يحملون درجات علمية ذات علاقة بالتكنولوجيا، و1٪

فقط من غرف الأخبار يعمل فيها صحفيون مختصون في مجال تحليل البيانات.

- معظم غرف الأخبار التي شملها المسح الذي أجري في 120 بلدا وبـ21 لغة وشارك فيه أكثر من 2700 صحفي؛ لا تملك خططا لإعادة تحديد أدوار الصحفيين ومهامهم للتوافق مع العصر الرقمي.

- حوالي 11٪ فقط من الصحفيين في هذه الغرف هم من يستخدمون وسائل التحقق من محتوى منصات التواصل الاجتماعي، في الوقت الذي يلجأ فيه نحو 17٪ منهم إلى هذه المنصات للحصول على أفكار للموضوعات والقصص الصحفية.

- معظم غرف الأخبار التي شملها المسح تعتمد بشكل كبير على منصات وسائل التواصل الاجتماعي لترويج المحتوى الخاص بها، لكن بتركيز أكبر على فيسبوك وتويتر ويوتيوب، بينما تهمل بقية المنصات الأخرى.

حراك من أجل الحياة

وكما هو ملاحظ فإن المشهد الإعلامي العالمي يمر بتطورات قوية ومتسارعة، تحتمها وتحركها التحولات التكنولوجية الكبرى التي أثرت وتؤثر على جميع مناحي الحياة، ومن بينها العمل داخل غرف الأخبار.

لقد فرضت تلك التطورات العديد من التغييرات داخل غرف الأخبار التي أدرك الكثير منها أن ثمة حاجة ملحة إلى تغيير أساليب العمل، وصولا إلى تلبية الطلب على نوع جديد من المحتوى ولجمهور جديد أصبح يستهلك الأخبار والموضوعات الصحفية بطريقة جديدة وعبر منصات جديدة. وعن تلك التحولات يقول رئيس تحرير موقع بزفيد (deeFzuB) الشهير بن سميث « نعمل الآن في بيئة أصبح بإمكان أي إنسان فيها أن ينشر.. فإن كنا كوسائل إعلام نعتقد أننا حراس للبوابات وأن بإمكاننا أن نحجب معلومات معينة، فإن ثمة أناسا آخرين بإمكانهم أن ينشروا ومن دون أي خبرة أو أي سياق للأحداث».

نموذج الإيكونوميست.. الفضاء المفتوح

وفي سعيها لمواجهة تلك التحديات التي أشار سميث إلى بعضها، عمدت بعض المؤسسات الصحفية الكبرى في الغرب إلى تبني استراتيجيات جديدة، وأحدثت تغييرات مهمة داخل غرف الأخبار فيها حتى تتمكن من الدخول الفعلي إلى العصر الرقمي (3).

عمدت المجلة البريطانية الشهيرة «الإيكونوميست» إلى إزالة الحواجز التي كانت تفصل الإدارات المختلفة داخل غرفة الأخبار، بهدف تحسين التواصل بين فرق العمل المختلفة.

وقبل ذلك الإجراء كانت فرق الصحفيين والمصممين ومحللي البيانات تعمل ككتل منفصلة. وبحسب الصحيفة فإن هذا الإجراء كان عاملا أساسيا في نجاح فريق التواصل الذي تمكن من تحقيق زيادة بلغت 55٪ في أعداد المتابعين.

وترجع مسؤولة التطوير الاستراتيجي في المجلة دينس لو ما تحقق من نجاح إلى التعديلات التي أجريت على المساحات داخل غرف الأخبار، وإلى تعديل طرق سير العمل فيها، مضيفة أن إزالة تلك الحواجز أوجدت بيئة جديدة للعمل، سمحت بالمزيد من التواصل والعمل الجماعي وتبادل الخبرات.

نموذج نيويورك تايمز.. الاستثمار في المهارات الجديدة

وبحسب بيان للصحيفة الأميركية الأبرز نيويورك تايمز، فإنها وجدت رغبة أكيدة وعميقة لدى العديد من صحفييها ومحرريها لاكتساب مهارات جديدة. وتضيف أن التحولات التي يمر بها المشهد الإعلامي العالمي تمثل لحظة مهمة لجميع العاملين في المؤسسة ممن لديهم رغبة

بن سميث، رئيس تحرير موقع بزفيد - رويترز.

عارمة في جعل التغيير حقيقة واقعية، وأنها في موقف جيد يمكنها من الاستفادة من هذا المشهد الإعلامي المتغير (4).
وتؤكد الصحيفة أنه بالنظر إلى المستقبل فإنها تسعى إلى توسيع نطاق التدريب ليتمكن جميع صحفيي المؤسسة من اكتساب أنواع جديدة من المعرفة تمكنهم من إنتاج صحافة رقمية تلبي التميز الذي عرفت به نيويورك تايمز. وتشدد على أن الدخول إلى العصر الرقمي يتطلب إحداث العديد من التحولات، خاصة نحو إنتاج المحتوى الذي يجب أن يركز على الجانب البصري مستعينا بالصور والفيديوهات.

نموذج كوارتز.. العروج بتحليل البيانات

أما موقع كوارتز فقد ركزت تجربته في الدخول إلى العصر الرقمي على عملية تحليل البيانات (5). وتشرح مديرة التحرير السابقة بالموقع مارتا كوبر أن بيانات جمهور الموقع تمثل عنصرا مهما لغرفة الأخبار، مضيفة أن ثمة تدريبا كافيا للعاملين بالموقع حول كيفية تحقيق أقصى استفادة من أدوات التحليل المستخدمة، وبالتالي يصبح من السهل عليهم استصحابها ضمن العمل اليومي.

وقد كشف بحث لمعهد رويترز أن المحتوى الذي يعتمد على تحليل البيانات أصبح ظاهرة متطورة تساعد في عملية صنع القرار وتقييم الأداء وتطوير طرق سير العمل الخاص بالمنتجات التحريرية الجديدة.

ولا تقتصر عملية الاستفادة من تحليل البيانات على المؤسسات الإعلامية الناشئة فحسب، فمؤسسة مثل هيئة «بي. بي.سي» تعمل أيضا على إعادة تنظيم طرق سير العمل في غرفة الأخبار بالاستناد إلى بيانات الجمهور.

وقد أوضح مدير التسويق والجمهور في الهيئة جيمس هولدن أن عملية جدولة الأخبار تغيرت منذ أن أصبح بإمكان الصحفيين الاطلاع على البيانات الخاصة بالجمهور وكيفية تفاعله مع الأخبار، حيث ساعد ذلك على تعديل جداول النشر.

أزالت الإيكونوميست الجدران التي كانت تفصل الإدارات المختلفة داخل غرفة الأخبار، لتحسين التواصل بين فرق العمل المختلفة.
تصوير بيتر نيكولز - رويترز.

نموذجا نيويورك ديلي نيوز وبروبليكا

اعتمدت نيويورك ديلي نيوز وبروبليكا على نموذج إقامة الشراكات بين غرف الأخبار. وتساعد هذه الشراكات على تخفيف ما يعرف بضغوط الموارد التي تتعرض لها العديد من المؤسسات الإعلامية التي اضطرتها تحولات المشهد الإعلامي إلى تقليل مواردها. وقد تعاونت المؤسستان في إجراء سلسلة تحقيقات استقصائية عن انتهاكات الشرطة في نيويورك أثناء إجلاء سكان أحد أحياء المدينة، وحصلتا بذلك العمل على جائزة بوليتزر الشهيرة في أبريل/ نيسان 2017.

إن أمام غرف الأخبار في جميع أنحاء العالم تحديات كبيرة، فلكي تواجه المشهد التقني الذي يشهد جديدا في كل يوم، عليها أن تبتدع الطرق والأساليب التي تمكنها من التصدي لتلك التحولات والتعاطي معها، سواء أكان ذلك عبر دمج فروعها وأقسامها المختلفة، أو بإعطاء المزيد من الاهتمام لبيانات الجمهور وتحليلها ومحاولة الاستفادة منها في وضع الخطط وتعديلها وتغييرها كلما دعت الحاجة إلى ذلك، أو بإقامة الشراكات المفيدة مع بعضها البعض، خاصة إن كان الإجراء الأخير سيوفر المزيد من الموارد ويسهم في تقليل الجهد والتكلفة اللذين يمكن توجيههما إلى أعمال أخرى.

غرفة أخبار البي بي سي، حيث تعمل تلك المؤسسة أيضا على إعادة تنظيم طرق سير العمل في غرفة الأخبار بالاستناد إلى بيانات الجمهور. تصوير: جيف أوفرز - غيتي.

المراجع:

(1)https://www.nngroup.com/articles/the-end-of-legacy-media-newspapers-magazines-books-tv-networks/
(2)http://www.icfj.org/sites/default/files/ICFJTechSurveyFINAL.pdf
(3)https://agency.reuters.com/en/insights/articles/articles-archive/how-5-newsrooms-are-modernizing-workflows.html?utm_source=Eloqua&utm_medium=email&utm_campaign=Media%20-%202017%2010%2010%20-%20Newsletter%20Publisher&utm_content=Media%20-%202017%2010%2010%20Newsletter%20Publisher&elqTrackId=04839c1ad5994199a3d8a28dc6929ab2&elq=43c713941d1c41d9a0c227cfe694f643&elqaid=13754&elqat=1&elqCampaignId=2900
(4) https://www.nytimes.com/projects/2020-report/
(5)https://digiday.com/media/quartz-rethinks-modern-newsroom/

فيلم «غياب الحقد».. الصحفي أمام محكمة أخلاقية

عنان العجاوي

الممثل بول نيومان في أحد مشاهد الفيلم حيث اسم «غالاغير»، منشور على الصفحة الأولى للصحيفة بصفته المشتبه به الأهم في قضية اختفاء الرجل النقابي «جوزيف دياز» - غيتي.

يضع فيلم «غياب الحقد» مهنة الصحافة أمام محكمة أخلاقية بعد ست سنوات من ظهور فيلم «كل رجال الرئيس» الذي يمجّد الدور المهني للصحفيين .

تبدأ قصة الفيلم الدرامي على طريقة المخرج سيدني بولاك المشوّقة؛ من المكتب الصحفي وأوراق الجرائد، وأصوات الآلة الكاتبة، وتنتقل مباشرة إلى الميناء، حيث «غالاغير» وهو مستورد مشهور للخمور يتفاجأ بنشر اسمه على الصفحة الأولى بصفته المشتبه به الأهم في قضية اختفاء الرجل النقابي «جوزيف دياز».

كانت القصة الخبرية موقعة باسم الصحفية المتحمسة ميغان كارتر التي نكتشف فيما بعد حماسها الصحفي، وفقدانها لحس المسؤولية. وقد سرّب إليها الخبر محققون اتحاديون حاولوا استهداف غالاغير، بناءً على ثلاثة احتمالات وضعوها حوله: إما أنه الفاعل، أو يعرف من الفاعل، أو يستطيع أن يكتشف الفاعل.

مع صدور الطبعة، تنقلب حياة غالاغير على المستويين العملي والشخصي، فالنقابة أصدرت الأوامر لعمّاله بعدم مواصلة العمل لحسابه. أما صديقته تيريزا بيرون -الوحيدة التي تمتلك دليل براءته لأن غالاغير كان برفقتها لمدة أسبوع أثناء إجرائها عملية إجهاض في أتلانتا، وهي الفترة التي تعرّض فيها «دياز» للاختفاء- فتحاول إنقاذ صديقها بالتواصل مع الصحفية ميغان كارتر، وتطلعها على تلك المعلومة بعد أن ترجوها عدم نشر القصة لأنها (بيرون) كاثوليكية (مذهب يحرم الجنس قبل الزواج ويحرم الإجهاض).

ولكن في اليوم التالي، تستلم بيرون -المنهارة تماماً أمام منزل صديقها- الجريدة، وتقرأ قصة إجهاضها على الصفحة الأولى، فتبدأ الركض إلى باحة الجيران حتى تتوارى وراء الأشجار وتنتحر هناك.

الحقيقة المؤذية

كانت ميغان تعوّل بنشرها قصة الإجهاض على إنقاذ غالاغير وإصلاح الضرر الذي أصابه جراء قصتها الأولى، إلا أنها مع إبلاغها بحادثة انتحار بيرون دخلت في نوبة من الندم وتأنيب الضمير. ولكن من جهة أخرى براغماتية، آمنت ميغان بنشر ما تعتقد أنه حقيقة للجمهور، دون النظر إلى كونها مؤذية لبيرون بعدما أسرّت لها الأخيرة قصتها كأنها «تتحدث إلى صديقة».

وبما يتنافى مع الواجب الأخلاقي للمهنة عندما يتعلق الأمر بإيذاء الناس وإفشاء أسرارهم، نشرت ميغان الحقيقة ووضعت بيرون في مكان الشاهد، وهو ما حدث سواءً في نشرها للقصة المسربة التي أضرت بغالاغير، أو الثانية التي أدت إلى انتحار بيرون. وعلى الرغم من أن القصتين كانتا حقيقيتين من وجهة نظرها فإنهما ضارّتان، وهو ما يحتاج إلى إعادة تعريف مفهوم «الحقيقة» بمعناها الكلي، وتجريدها من الاعتقادات

الشخصية، أو التسريبات الشفوية غير المدعومة بالأدلة المادية.

وعلى النقيض من براغماتية ميغان المؤذية، فإنّ مايك غالاغير الذي كانت شهادة صديقته بيرون لوحدها كافية لرفع الشبهة عنه، أصرّ على عدم إقحامها في مشاكله لاعتبارات أخلاقية وإنسانية تمس بيرون وسمعة عائلتها الكاثوليكية المتدينة، رغم أن إشهار تلك الحقيقة كان مصيريا بالنسبة له.

المبنية على المسؤولية والدقة والاستقلالية، والعمل لصالح الجمهور حتى لو كان ضد رغبة السلطات، والمحافظة على حقوق الآخرين، امتلكها في فيلم «غياب الحقد» الممثل بول نيومان الذي تألّق بأفضل أدواره، تاجر الخمور غالاغير المشتبه به الأهم، الذي أقحم اسمه في خبر بناءً على احتمالات هدفها التشهير والابتزاز والضغط، إذ نشرت الصحفية تسريبات غير موثوقة ودون مقابلته قبل نشر الخبر.

تتهمين شخصاً يصدّقك الجميع، وعندما تعلنين براءته لا أحد يبالي». ويتنصّل كامل من المسؤولية أجابته: «ذلك خطأ القرّاء وليس خطأ الصحيفة»!

بعد انتحار بيرون، وفي حالة ضعف وتأنيب ضمير، اعترفت له ميغان بأن المحقق الاتحادي دوزن هو من سرّب إليها الخبر.. أمسك غالاغير بذلك الخيط ورسم سيناريو متماسكا لإظهار الحقيقة، فعقد صفقة مغرية مع «كوين» المدعي العام للمقاطعة؛

مع صدور الطبعة، تنقلب حياة جالاجير (بول نيومان) على المستويين العملي والشخصي، فالنقابة أصدرت الأوامر لعمّاله بعدم مواصلة العمل لحسابه.

عندما يملك المتهم عقلية الصحفي

مبادئ العمل الصحفي تأثّر غالاغير لكمّ التشويه الذي طال سمعته، وتواصل مع ميغان غير مرّة لمعرفة «مصادرها المطلعة» التي أدارت الحملة ضده. حاولت ميغان أن تمنحه تعويضا هشّاً؛ إذا ما ثبتت براءته بأن تنشر الخبر على الصفحة الأولى، حينها قال «عندما بأن يعلن الأخير براءته في مؤتمر صحفي عام مقابل أن يساعده غالاغير في قضية اختفاء دياز. يستطيع غالاغير بذكاء التاجر أن يورط جميع الأطراف الرسمية التي عملت ضده، وعن قصد وضع المدعي العام

كوين في موضع شبهة أخذ الرشوة منه، ليعمل بعدها مكتب التحقيقات الاتحادي على تسريب قصة ثانية إلى ميغان، وفحواها شكوك بتلقي المدعي العام رشوة مالية من غالاغير، لتنشرها هي كالعادة كاحتمال آخر غير موثوق، وهي القصة الثالثة المتناقضة التي تنشرها، مما يدلل على تخبطها وعدم امتلاكها سيناريو مكتمل تجاه الحدث الذي تعالجه، فقد نشرت أولاً ما يُدين غالاغير، ثم نشرت ما يبرئه، وأخيرا تنشر ما يدينه ويدين المدعي العام، قبل استدعائها إلى جلسة أخلاقية.

من بين جميع الأطراف المستدعين للجلسة، كانت ميغان الوحيدة التي حضرت برفقة محام، بصفتها طرفًا سلبيا غير حيادي في المشكلة، إلا أن ذلك لم يحل دون قرار منعها من مزاولة المهنة، وبراءة غالاغير، واتهام المحقق روزن بتلفيق القضايا وتسريب المعلومات لمصالح شخصية. غير أن الدرس الأخلاقي الذي تلقته ميغان متأخرا من مساعد المدعي العام، يعتبر الركن الأهم في المجال الصحفي: «لا نستطيع أن نملي عليكم ما تكتبونه وما لا تكتبونه، ولكننا نأمل أن تتصرف الصحافة بمسؤولية. ولكن عندما لا تفعلون ذلك فلا يوجد لدينا خيارات كثيرة». الممثلة سالي فيلد التي أدت دور الصحفية ميغان كارتر، كتب عنها الناقد السينمائي روجر إيبرت بعدما أظهر إعجابه بالفيلم ومشاكله الاجتماعية والواقعية: «لا يوجد صحفي محترم من شأنه أن يفعل ما فعلته ميغان بحق غالاغير في هذا الفيلم.. إنها عار على مهنتها»، حيث تسببت في انتحار امرأة بريئة بعدما نشرت خبرا خاصا لم تأخذ التفويض بنشره، بل وفقدت استقلاليتها بعدما جرى استغلالها غير مرّة من قبل المحققين، منتهزين جريها وراء السبق الصحفي، واستخدموها كناقل «لأوهامهم الشخصية» كما وصفهم مساعد المدعي العام المنتدب من قبل وزارة العدل، دون أن توثّق مصادرها وتتأكد من عدم كونهم طرفًا في قصة مصطنعة.

حين يراجع «غالاغير» (بول نيومان) الجريدة، ترد عليه «ميغان» (سالي فيلد) بأنها حاولت الاتصال به ولم يجب.

الدور السلبي للصحفي

يمكن مقاربة الخطأ غير المهني الذي وقعت فيه

مع ما يتم تداوله الآن -بعد 36 عامًا من إصدار الفيلم- على فضائيات إقليمية وعالمية تتعامل بالتسريبات، وتبث مشاهد من ساحات الصراع، دون الأخذ بعين الاعتبار احتمال أن تكون تلك التسريبات قد «صُنعت» بالفعل لخدمة أحد أطراف النزاع. ويكتفي المذيع بعد بث التسريب بالقول: «هذا.. ولم يتسنَّ (للقناة) التحقق من صدقية الفيديو»!

ومن المفارقة أن غالاغير تاجر الخمور كان هو من نبَّهَ الصحفية ميغان لتلك السقطة المهنية في أول مشاهد الفيلم المنتج عام 1981، لمّا سألها: لماذا لم تحاول التحدّث معه قبل نشر الخبر؟ فأجابته بسلبية: «حاولت الاتصال بك ولم أتلق ردًا».. و«هل هذا يكفي؟ كان عليكِ الاتصال مجددًا».. قال الضحية غالاغير.

الفيلم الحائز على جائزة الشرف في مهرجان برلين السينمائي، أظهر مدى ثقة الصحفية ميغان بالأخبار المثيرة والخارجة عن المألوف لدعم ما تعتقد أنه حقيقة، عندما لقّنت إحدى زميلاتها مقولة

سيُسبب اندفاع «ميغان» ونشرها ما تظن أنه ينقذ «غالاغير» بانتحار صديقته «تيريزا» فور نشرها.

مشهد من الفيلم.

جاهزة: «إذا خرجت الأسماك من الماء وهاجمت رجال الشرطة نسميها أسماك قرش، أما إذا كانت تسبح نسميها أسماكا فحسب»، متجاوزة دور الصحفي نفسه بالغوص تحت الماء لمعرفة كنه الأسماك، وتوصيفها وتسميتها دون الحاجة إلى وقوع حادثة الهجوم أو الافتراس، وهو ما اصطلح على تسميته في الصحافة الورقية «بالصحافة الصفراء»، وإلكترونيا بصحافة النقر على الطعم (click bait)، بما يشبه القاعدة القديمة «إذا عض الكلب رجلا فهذا ليس خبرا، أمّا إذا عض الرجلُ كلبا فهذا هو الخبر». وهكذا تعاملت ميغان مع قصصها الثلاث، وقضية الإجهاض بالذات، لمّا قيّمت أهمية الخبر بمدى غرابته وخروجه عن المألوف، كأن الحقيقة لا يمكن دعمها إلا بواسطة «الشو» الإعلامي!

«غياب الحقد» لا ينفي الدور البطولي للصحفيين في فيلم «كل رجال الرئيس»، بل يورد ما يعزز ذلك الدور. وقد تلقّى الفيلم ردود فعل إيجابية في الغالب، لمعالجته المشاكل المهنية والأخلاقية لمهنة الصحافة، حيث إن كاتب السيناريو المحرر الصحفي ديفد رفاييل سلّط الضوء من منطلق خبرته العملية، على أهم أخلاقيات المهنة. كما ترشَّحَ الفيلم لثلاث جوائز أكاديمية: أفضل ممثل رئيسي (نيومان)، وأفضل ممثلة مساندة، وأفضل كتابة سيناريو.

الناقد السينمائي، روجر إيبرت. تصوير: فرانك كابري - غيتي.

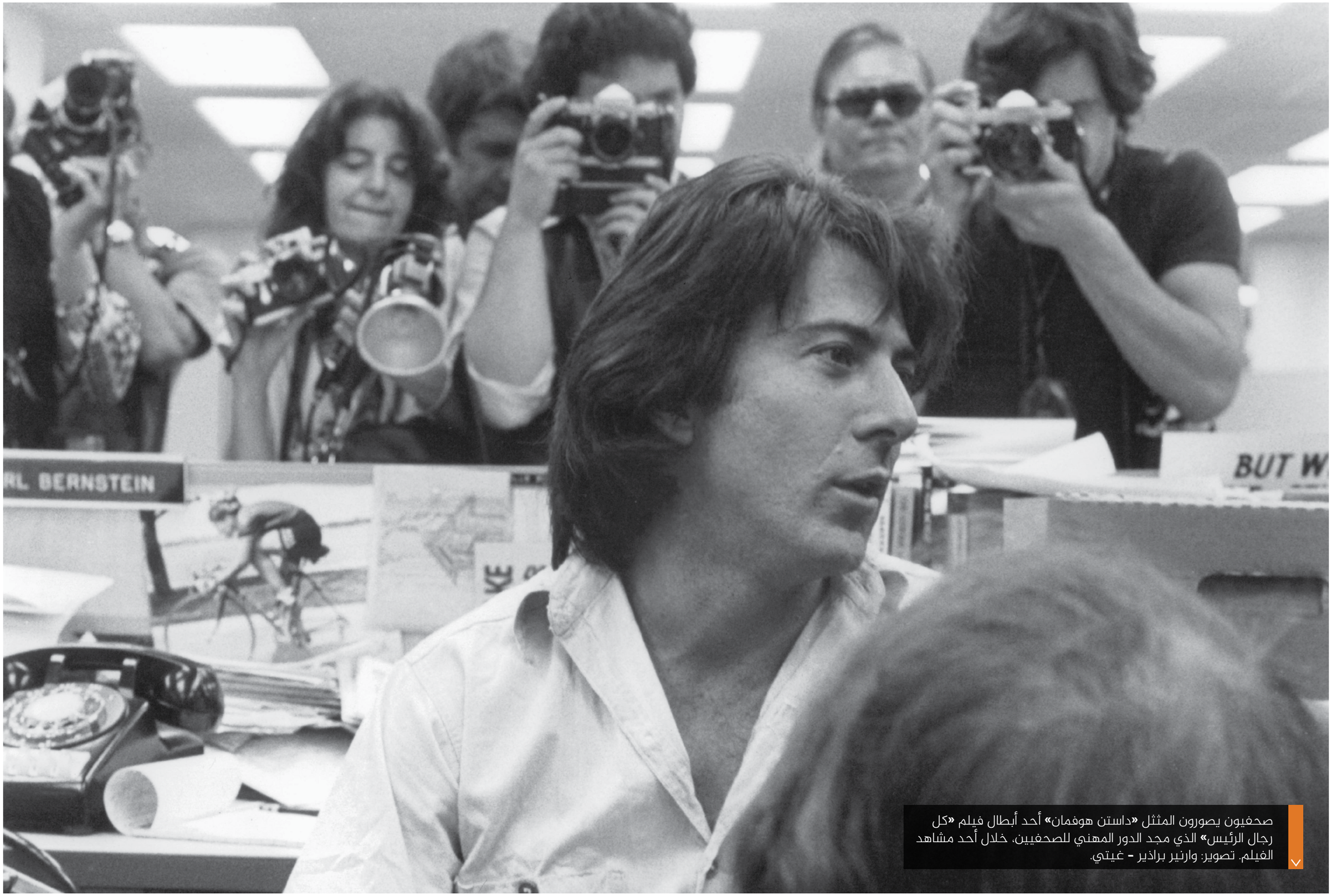

صحفيون يصورون المثثل «داستن هوفمان» أحد أبطال فيلم «كل رجال الرئيس» الذي مجد الدور المهني للصحفيين، خلال أحد مشاهد الفيلم. تصوير: وارنير براذير - غيتي.

معاناة اللاجئين من عناوين الأخبار في السودان

حسام الدين صالح

إذا اعتبرنا أن خطاب الكراهية يزدهر في أوساط وسائل التواصل الاجتماعي بما توفره من حرية وبُعد عن الرقابة، فإن وسائل التواصل الاجتماعي تعيد -بشكل أو بآخر- إنتاج وتداول خطاب الصحافة المكتوبة، سواء بالتعليق أو التحليل.

يعاني اللاجئون في العالم من عناوين الأخبار مثلما يعانون من مشاكل ومهددات كثيرة. يهاجر اللاجئون من أوطان لا تُحتَمل فيها الحياة، إلا أنهم يواجِهون في أماكن لجوئهم أوطاناً أخرى مصنوعة من عناوين الأخبار، أوطانا رمزيّة لا ترحّب بهم، ولا تريد لهم البقاء فيها طويلا ولا قليلا.

لا ينجو اللاجئون في السودان من معاناة مواجهة الأخبار السلبيّة التي تتصدر عناوين الأخبار في كبريات الصحف المحلية اليومية، مثلهم مثل كثير من اللاجئين في العالم. فقد بدأ السودان يصبح ملتقى كبيرا وجاذبا للاجئين القادمين من دول الجوار الأفريقي مثل إثيوبيا وإرتيريا والصومال وتشاد وأفريقيا الوسطى وجنوب السودان، ومن بعض الدول العربية كاليمن وسوريا، رغم الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي يمر بها السودان منذ انفصال جنوبه عن شماله في يوليو/تموز 2011.

مع أن السودان دولة جاذبة

لاجئون من جنوب السودان في مخيم الردوم في جنوب دارفور، 4 يونيو/حزيران 2017. تصوير: محمد نور الدين عبد الله - رويترز.

المفوض السامي لشؤون اللاجئين في المفوضية فيليبو غراندي، يلتقي مدنيين ينتقلون لمخيم جديد في بينتيو جنوب السودان، 18 يونيو/حزيران 2017. تصوير: دافيد لوويس - رويترز.

لاجئون ومواطنون

كمثال على حسن ضيافة السودان -حكومة ومجتمعا- للاجئين، يُعامل اللاجئون السوريون فيه معاملة المواطنين مثلما كان لاجئو جنوب السودان يُعاملون كمواطنين أيضا، قبل أن ترفع الحكومة السودانية عنهم هذه الميزة التفضيلية.

نجح كثير من هؤلاء اللاجئين في الاندماج مع المجتمع المحلي السوداني، حيث استوعبهم سوق العمل السوداني، واستطاع بعضهم تأسيس أعمال تجارية خاصة في مجالات المطاعم والأثاث وصيانة السيارات، بينما تعثّر كثيرون بسوء أحوالهم الاقتصادية وتدني المستوى المعيشي والغلاء في السودان، واضطر البعض لممارسة التسول في شوارع العديد من المدن السودانية الرئيسية كالخرطوم ومدني.

ارتفاع عدد اللاجئين في السودان بات يزيد من الضغوط على الحكومة المحلية في تحسين خدماتها لمواطنيها ويضاعف في نفس الوقت من مسؤوليتها تجاه اللاجئين.

إن واقع وجود اللاجئين بعدد ضخم في السودان يخلق تحديا كبيرا على الحكومة والسكان المحليين على حد سواء، لاسيما في العاصمة الخرطوم التي تعد المدينة السودانية الأكثر جذبا للسكان المحليين للإقامة فيها بدافع الاستفادة من الخدمات التي تشح في بقية مدن البلاد، وهذا نفسه السبب الجاذب الذي يدفع الكثير من اللاجئين إلى تفضيل الإقامة في الخرطوم.

هذا الواقع الجديد خلق إحساسا بالقلق لدى الحكومة والسكان المحليين، وحاولت السلطات معالجته بإخراج معسكرات اللاجئين المتمركزة حول الخرطوم إلى مدن أخرى، ومنع دخول أي لاجئين جدد إلى العاصمة أو تخومها. كما حاولت الاستفادة من برامج الأمم المتحدة التي تستهدف دعم المجتمعات المضيفة للاجئين، من أجل خلق توازن اجتماعي واقتصادي في المناطق التي يتواجد فيها اللاجئون بكثرة.

الإعلام الجديد وبيئة خطابات الكراهية

أما ردود فعل المجتمع المحلي من الوجود المتكاثر للاجئين وسطهم، خصوصا في المجتمع الحضري الذي تمثله العاصمة الخرطوم، فيمكن ملاحظة جانب منه في التداول الإخباري على شبكات التواصل الاجتماعي، حيث بالإمكان رصد ردود أفعال رافضة للوجود الأجنبي الذي يمثل اللاجئون أبرز مظاهره. وتتشكّل هذه الرود السلبية في موجة شائعات، وأخبار مزيفة، وخطابات كراهية وعنصرية. ورغم أن ردود الفعل السلبية هذه حاولت التخلّق عبر شكل حملة إعلامية عبر وسائط التواصل الاجتماعي، فإنها فشلت في التحول إلى رأي عام يعبّر عن مجمل المجتمع السوداني. لقد حوصرت ردود الفعل السلبية منذ بدايتها بالسماحة والضيافة التي اشتهر بها المجتمع السوداني والتي سبق أن أشارت إليها المفوضية السامية لشؤون اللاجئين، كما حوصرت أيضا بحملات تطوعية قام بها العديد من اللاجئين كان هدفها دعم المجتمعات المحلية على سبيل الامتنان والشكر على الضيافة. ومن هذه الجهود التطوعية قيام لاجئين سوريين بحملات تنظيف وتجميل للعاصمة الخرطوم لاقت استحسان الكثير من المواطنين السودانيين.

حاولت ردود الأفعال السلبية الاستفادة من مناخ الكراهية ضد اللاجئين بالتركيز على التصرفات الفردية السالبة من بعض اللاجئين، سواء أكانت تصرفات سلوكية، أو جرائم تزوير أو مخدرات، أو انتشار للتسوّل، ليتم تضخيمها بشائعات وأخبار مزيفة تدّعي انتهاك اللاجئين لقيم وعادات المجتمعات المحلية، أو أنهم يضايقون السكان المحليين في مصادر كسب العيش، أو أنهم ينتهكون السيادة الوطنية للدولة بحصولهم السهل على الجنسية السودانية، وغيرها من الاتهامات.

لقد زادت فعلا وتيرة ردود الأفعال السلبية تجاه اللاجئين في السودان بشكل غير مسبوق بعد أن سمحت الحكومة بتسهيل إجراءات منح الجنسية لمواطني بعض الدول كسوريا والعراق وفلسطين واليمن وبورما، مما دفع بعض المواطنين الناشطين في وسائل التواصل الاجتماعي إلى إطلاق حملات إعلامية تطالب بتقييد حركة اللاجئين والمهاجرين الذين يحتضنهم السودان كضيوف ومواطنين.

اللاجئون في أجندة الصحافة

رغم فشل حملات الكراهية ضد اللاجئين في السودان وانحصارها في نطاق ضيق على وسائل التواصل الاجتماعي، فإن الخطاب الخبري للصحافة السودانية في السنوات الأخيرة لا يساعد كثيرا في تضييق انتشار نطاق الصورة السلبية التي يحاول البعض دمغها باللاجئين.
وحسب الدراسة التي أقوم بها لمعرفة تمثيل الخطاب الخبري للاجئين في السودان، يمكن القول إن قضية الأجانب عموما واللاجئين خصوصا أصبحت موضوعا مطروقا بكثرة في الصحافة السودانية،

الأخبار في الصحافة المكتوبة، مما يدل على الحضور القوي لموضوع اللجوء في أجندة الصحافة والسياسة والرأي العام بالسودان.

وحسب النتائج الأولية للدراسة فإن التحليل النقدي للخطاب الخبري للصحافة السودانية تجاه قضايا الأجانب واللاجئين في الفترة التي تركّزت عليها الدراسة بين يونيو/حزيران 2016 إلى يونيو/حزيران 2017، يكشف أن الأخبار السالبة تكاد تسيطر على مجمل الأخبار الواردة عن الأجانب عموما واللاجئين خصوصا.

إذا ألقينا الضوء على سبيل التلخيص على حادثتين على علاقة بالأجانب واللاجئين، سنعرف كيف مثّلت الصحافة السودانية اللاجئين عبر خطابها الخبري، وسنركز فقط على العناوين الرئيسية للصحف المحلية استنادا إلى أهمية وتأثير عناوين الأخبار الواردة في الصفحات الأولى، بحسبانها تقدم الملخص والأحداث الرئيسية والمهمة للوقائع.

تمثيل اللاجئين في عناوين الأخبار المحليّة

الحادثة الأولى كانت اضطرابات وأحداث عنف وقعت في مخيم خور الورل بولاية النيل الأبيض جنوبي البلاد يوم 3 أغسطس/آب 2017 وأسفرت عن حرق المنطقة الإدارية للمخيم ونهب المستودعات وغيرها من أعمال العنف. يستضيف المخيم -حسب توضيحات مفوضية اللاجئين- أكثر من 50 ألفا من لاجئي جنوب السودان، وأوضح البيان الذي أصدرته المفوضية في السودان أن الاضطرابات بدأت بشائعات أفادت بمصرع لاجئ لدى احتجازه لدى الشرطة السودانية.

في اليوم التالي خرجت الصحف المحلية بأخبارها حول الحادثة، نختار منها هنا بعض العناوين التي أوردتها كبريات الصحف المحلية في اليوم الأول لتغطيتها أخبار مخيّم اللاجئين من دولة جنوب السودان: "لاجئون جنوبيون يغتصبون 4 معلمات سودانيات بالنيل الأبيض.. لاجئون جنوبيون يغتصبون 4 معلمات ويحرقون مستودعات للأغذية بالنيل الأبيض.. أحداث شغب وتخريب في معسكر لاجئين جنوبيين بالنيل الأبيض.. لاجئون جنوبيون يعتدون على معلمات ويحرقون مكاتب بالنيل الأبيض».

في اليوم الثاني للتداول الخبري لأحداث المخيم، اختفت من الأخبار الإشارة إلى مفردة "الاغتصاب" التي أوردتها كثير من الصحف، وركزت العناوين أكثر على التفاصيل وردود الفعل الرسمي: "بدء التحقيق مع 78 من اللاجئين المتورطين في أحداث معسكر خور الورل.. تفاصيل جديدة عن اعتداءات الجنوبيين بالنيل الأبيض.. بدء التحقيق مع 78 متهماً في أحداث معسكر خور الورل.. الداخلية تؤكد استقرار الأوضاع في معسكر خور الورل بالنيل الأبيض.. الوالي يحذر اللاجئين الجنوبيين من المساس بأمن المواطنين".

في اليوم الثالث للتغطية الصحفية، مالت التغطية الإخبارية أكثر إلى الكشف عن الفاعلين السياسيين: "الأمم المتحدة تدين اعتداء جنوبيين على معلمات بالنيل الأبيض.. الحكومة: ضباط بالجيش الشعبي شاركوا في أحداث معسكر خور الورل.. تفاقم أزمة معسكر ورل وجوبا تطالب بحماية اللاجئين.. 1000 فار من الجيش الشعبي يتسببون في أحداث المعسكر".

في اليوم الرابع للتغطية الإخبارية، ركزت الأخبار على هوية المتّهمين المحتملين في التسبب بالحادثة، كما أشارت إلى القرارات الرسمية التي اتخذت من قبل الحكومة لمنع تكرار اضطرابات مشابهة: "الخرطوم تتهم جوبا رسمياً بالوقوف وراء الأحداث بمخيم خور الورل.. ضبط الجناة في أحداث خور الورل، وإبعاد لاجئين جنوبيين إلى بلادهم.. الداخلية: زيادة قوات الشرطة لحماية معسكرات اللاجئين الجنوبيين.. وزارة الداخلية: توزيع معسكر خور الورل لثلاثة مواقع " .

أطفال لاجئون من جنوب السودان، يلعبون في مخيم للاجئين بالخرطوم حيث يقيمون منذ أربع سنوات. 11 مايو/أيار 2014. تصوير: نور الدين عبد الله - رويترز.

في اليوم الخامس اختفت أخبار الحادثة وأخبار اللاجئين الجنوبيين تماما من أخبار الصحف الصادرة في ذلك اليوم. لاحظت الدراسة أن الخطاب الخبري للصحف مال نحو التعميم، وشابَه النقص في عرض المعلومات والوقائع، واتجه إلى تأكيد أخبار مظنونة كما لو أنها مؤكدة مثل خبر "اغتصاب معلمات سودانيات بالمخيّم". وكان الخطاب في الجملة سلبيا تجاه اللاجئين، وكانت أغلب مصادر الأخبار مستقاة من أطراف رسمية حكومية، ولم تتح لأطراف تمثل اللاجئين الإدلاء بأصواتهم في الأخبار، ولم تتم الإشارة إلى أسباب الاضطرابات، وإنما ركّزت الأخبار أكثر على المتسبّب. اتجهت معظم الأخبار إلى تمثيل اللاجئين عن طريق أفعال مبنيّة للمعلوم، ليتم إظهارهم كفاعلين مؤثرين حال قيامهم بأدوار سلبية "اعتداء جنوبيين، لاجئون يغتصبون، لاجئون يعتدون، يحرقون"، وقد اختار الخطاب الخبري مفردات سلبية لتوصيف اللاجئين مثل "المتورطين، الجناة، إبعاد، تحذير، أمن المواطنين، شغب، تخريب".

أسلحة وتفجير وأخبار ليوم واحد فقط

الواقعة الثانية التي اختارتها الدراسة كان مسرحها العاصمة الخرطوم، حيث وقع تفجير في شقة يقيم بها أجانب -بينهم سوري وصومالي- يوم 12 فبراير/شباط 2017، وظهرت أخبارها في صحف اليوم التالي ثم اختفت بعدها أي إشارة إلى الخبر أو الحادثة، بعكس حادثة مخيّم اللاجئين في خور الورل التي كانت الصحف تتناولها لمدة خمسة أيام في صدر صفحاتها الأولى. لم تتم الإشارة إلى حادثة تفجير شقة الأجانب مرة أخرى إلا بعد نحو شهرين؛ بالإشارة إلى إحالة الأجانب المتهمين في القضية إلى النيابة. وكان عنوان الصحيفة الوحيدة التي صدّرته على صفحتها الأولى كالتالي "إحالة 11 من متهمي انفجار شقة أركويت للنيابة".

عكست أخبار الصحف الحادثة على النحو التالي: "انفجار

قنبلة بالخرطوم والقبض على أجانب في شقة مكدسة بالأسلحة.. انفجار قنبلة في شقة أجانب بالعاصمة.. انفجار شقة في الخرطوم يقود إلى أجانب يصنعون المتفجرات.. التفاصيل الكاملة لمتفجرات شقة أركويت وجوازات السفر الأجنبية.. ضبط متفجرات بحوزة أجانب بالخرطوم".

وهكذا يربط الاختيار التحريري للمفردات في العناوين بين الأجانب وتهديد الأمن.. "أجانب يصنعون المتفجرات، متفجرات بحوزة أجانب، شقة مكدسة بالأسلحة»، إلى جانب الإشارات السلبية للأفعال الواردة في السياق الخبري "ضبط، القبض".

الإشارات الإيجابية في خطاب اللاجئين

بالإضافة إلى هاتين الواقعتين، التفتت الدراسة إلى الخطاب السلبي العام المرتبط بالأجانب واللاجئين في كثير من الأخبار التي وردت في الفترة التي ركزت عليها الدراسة. من هذه العناوين السلبية نقرأ الآتي: "أجنبي يسرق 200 ألف جنيه ومصوغات ذهبية من متسولة أجنبية بالخرطوم.. المباحث تلقي القبض على شبكة أجنبية خطيرة بحوزتها 70000 دولار مزيف.. ضبط أجنبي يدير مصنعاً لتزييف العملات بالخرطوم.. القبض على محتال أجنبي يجري عمليات تجميل للفتيات بالخرطوم.. الصحة: 181 عاملاً أجنبياً بالكافيتريات مصاباً بالإيدز والكبد.. ضبط خلية أجنبية بحوزتها أسلحة.. دجال أجنبي يستبيح عرض أسرة كاملة عن طريق الشعوذة.. ضبط خلية أجنبية تستدرج ضحاياها من الأثرياء بالدولار الأسود.. تدفقات اللاجئين الجنوبيين تتوالى على جنوب كردفان.. القبض على سوريين أساؤوا للسودان في فيسبوك.. الداخلية: 300 أجنبي بالسجون بغرض الإبعاد.. الداخلية: توقيف أجانب أساؤوا للسودان.. وزارة الداخلية: مليون و500 ألف مهاجر غير شرعي بالبلاد"، وغيرها من العناوين الرئيسية التي تكرس لخطابات سلبية عن الأجانب والمهاجرين واللاجئين وتهمل الإشارات الإيجابية عنهم.

أغلب التراكيب اللغوية تعبر عن خطابات سلبية عمومية "سرقة، احتيال، تسول، خطر، إساءة، توقيف، ضبط، القبض، غير شرعي، سجون، تدفقات، أيدز وكبد وبائي، خلايا، دجل وشعوذة، استباحة أعراض، استدراج، أسلحة، تزييف".

دور الخطاب الخبري في تجفيف منابع الكراهية

إن التعميم في الخطاب الخبري وتعمية جنسية الأجنبي حتى وإن كان سياسة تحريرية يقصد بها رفع الحرج، فإنها على المستوى البعيد تدخل «جميع» الأجانب في حرج ارتكاب «بعضهم» لجرائم. إن مثل هذه السياسات التحريرية تضع البريء والمتهم في كفة واحدة، وتعرّض جميع الأجانب للإدانة المحتملة من المجتمع. إن أهمية دراسة الخطاب الخبري للصحافة تجاه قضايا اللاجئين تكمن في أنها تسلط الضوء على المعالجات الصحفية التي تضعها غرف الأخبار وإدارات التحرير في وسائل الإعلام وتستخدمها في تحديد أطر التناول الخبري لقضايا اللاجئين، حيث يساعد هذا التتبع للخطاب الخبري على تجفيف المنابع التي يستمد منها خطاب الكراهية ضد اللاجئين مبررات وجوده وقوته واستمراره، فهو خطاب يعتمد في الغالب على الإشاعات والأخبار المفبركة وغير المؤكدة.

إذا اعتبرنا أن خطاب الكراهية يزدهر في أوساط وسائل التواصل الاجتماعي بما توفره من حرية وبعد عن الرقابة، فإن وسائل التواصل الاجتماعي تعيد -بشكل أو بآخر- إنتاج وتداول خطاب الصحافة المكتوبة سواء بالتعليق أو التحليل، ولهذا فإن التحليل النقدي المستمر لخطاب الصحافة تجاه قضايا اللاجئين يقلل من اعتماد وسائل التواصل الاجتماعي على الاتجاهات السالبة في تمثيل الصحافة للاجئين والأجانب.

أصبح من المألوف أن نقرأ في عناوين الأخبار كيف يعاني اللاجئون في العالم، لكن حان الوقت لنلتفت أيضا إلى كيف يعاني اللاجئون من عناوين الأخبار؟

الصحافة المحلية.. وديكٌ لا يبيض ذهبا

وصال الشيخ

مدينة العرائش المغربية، لا تشكل مركزا مهما للأخبار كالمدن الرئيسية، الرباط والدار البيضاء - شاترستوك.

ما هي المصادر التي يعتمد عليها صحفي مقيم في بلد آخر لإنتاج مواده الإخبارية؟ سؤال همّني كثيراً خلال تجربتي، لكنّ المؤكد أن الوسائل التي يعتمدها الصحفيون في كتابة أخبارهم أو مقالاتهم أو تقاريرهم المطوّلة مختلفة، بعضهم يوظف ما تعلّمه في الغرف الإخبارية، وبعضهم ينطلق من علاقاته الشخصية مع صحفيي الميدان أو مكاتب التحرير.

لم أكن يوماً ابنة غرفة أخبار حقيقية، بل صنعت غرفة أخبار خاصة بي في منزلي على جهازي الحاسوب، أسجّل الأرقام وأتواصل تدريجياً عبر شبكة المعارف التي أسستها وأهبط إلى الميدان وأعمل.

قد تكون القضية انقضت واستهلكها الجمهور، لكني كنت أحتاج دوما وقتا إضافيا لأصل إلى المصدرين الرسمي وغير الرسمي لأضفي زاوية أو معلومة جديدة حول ما يحدث. كان يتبادر إلى ذهني دائما أن أسأل الصحفيين في مواقع إخبارية صغيرة ومؤسسات كبيرة هل يصلون سريعا إلى المعلومات ومصادرها؟ وكيف يصوغونها بسرعة ويقدمونها للجمهور؟

أدركتُ بعد فترة أن هناك كتابة مغايرة ومتمهلة.. كان ذلك عندما سمعت بمشكلة نصب عمود لتقوية شبكة الإنترنت في ساحة «التحرير» بالعرائش، كنتُ حينها قد قرأت الخبر على موقع إخباري محلي. تظاهر العرائشيون وكانوا يحتاجون دعما إعلاميا لتوصيل أصواتهم وإسناد قضيتهم أمام شركة الاتصالات، حتى ارتدَّت الأخيرة عن فعلتها. صحيح أنني كتبت الخبر حينها وقلت بأن الساحة مهمة، لكني أفهم اليوم أنّها «خط أحمر» بالنسبة للسكان، ولا يمكن لأحد العبث بها نظراً لمكانتها الوجدانية. لو ذهبت حينها إلى الميدان واستقلّت سيارة أجرة من طنجة إلى العرائش -ساعتين ذهاباً وإياباً- لفهمت التاريخ والوجدان ولكتبت تقريرا مغايرا. حتى الموقع الذي اطلعت عليه لم يوضح لي أو لغيري لماذا الساحة مهمّة.

هكذا إذاً، أعتمد بشكل أوّلي على المستجدات التي تحاول المواقع الإخبارية المحلية تغطيتها وإنجازها، وأعتقد أن غالبية الصحفيين في المغرب يعتمدون أيضاً من مواقعهم على بعض الأخبار الواردة من هنا وهناك، أي من مواقع الأحداث. كيف لي أن أفهم مشكلة العطش في زاكورة إن لم أكن أتابع من موقعي بطنجة ما تقوله مواقع الأخبار المحلية هناك وما يقوله الصحفيون والصحفيون المواطنون حول ما يدور؟ كيف لي أن أعرف أنّ طبيبة أطفال كاد يصيبها الاكتئاب بسبب تردّي المستشفى الحكومي في زاكورة ثمّ حوّلته بجهودها وطاقتها إلى جنّة، إنقاذاً للأطفال وأمهاتهم اللواتي فقد بعضهن أطفالهن أثناء الرحلة الطويلة إلى مراكش أو الرباط؟ لم أكن أعرف بقصتها إلا من موقع محلي، لكني أضفت أنها تؤدي عملا عظيما عندما تنقذ أرواح الأطفال وطالبت بأجهزة وتبرعات لإنقاذ المستشفى المأساوي.

كيف لي أن أعلم بقصة الشاب المجتهد الذي تغلّب على إعاقته في تطوان، ونجح في الثانوية ووشحه الملك وساما، ومن ورائه قصة أمه العظيمة التي صبرت طويلاً لأجله؛ إلا من موقع محلي بتطوان؟

ذلك دور الإعلام المحلي، يحكي قصص الناس والمدن وما يجري فيها. يجد العاملون في الإعلام المحلي بالمغرب أن هناك نظرة إجحاف بحقهم، إذ حاول معظمهم أن يكون صحفيا ينقل أخبار مدينته، دون أن يكون حاصلا على تأهيل أكاديمي أو تدريب مهني، ولهذا تعتقد المؤسسات الإعلامية أنهم «معتدون» أو «متطفلون» على الصحافة، في حين أنه لولا عملهم لظل الاهتمام الإعلامي منصبا على المدن الكبرى فقط كالدار البيضاء والرباط، المدينتين اللتين يفضل أغلب الصحفيين الإقامة فيهما وكأنهما تبيضان ذهبا.

كانت أغلب المواقع المحلية في المغرب تتعطل نتيجة قلّة مواردها المالية والبشرية، فتغلق أو تعلّق لفترة وتعود للنشر. أما اليوم، فهناك تحدٍّ أكبر يتمثّل في القانون رقم 88/13 الذي نشرته الحكومة المغربية يوم 15 أغسطس/آب 2016، ويتعلق بالصحافة الإلكترونية والنشر.

في مقال نشر للزميل كريم البابا بمجلة «الصحافة» حول الموضوع، طرح تساؤلاً يخص مصير المئات من المواقع المحلية والجهوية في سياق «توفير مدير نشر» تتوفر فيه شروط مثل حصوله على شهادة في الصحافة وصفة الصحفي المهني، وطلبت من المواقع الإخبارية تسوية وضعيتها وفقاً لذلك.

وقبلت وزارة الاتصال والثقافة المغربية -حسب المقال- ملف 12 موقعا إخباريا إلكترونيا من بين أكثر من أربعين موقعا في مدن شمال المملكة. ففي طنجة مثلا، نجحت خمسة مواقع في الحصول على الموافقة بينما رُفض أكثر من 15 موقعاً. ولم تختلف النسبة في جارتها تطوان، وهي المدينة الثانية في الجهة، إذ كسبت سبع صحف إلكترونية الرهان، مقابل رفض القضاء الموافقة على 20 موقعا آخر، في حين تحققت شروط الملاءمة في بوابة إخبارية واحدة بمدينة شفشاون من بين خمس من نظيراتها. أما في مدينتي الحسيمة والقصر الكبير فلم تتوصل السلطات بأي طلب بالنسبة للأولى، ورُفضت الطلبات في الثانية.

منذ فترة ليست قصيرة -عامين على الأقل- كنت أقرأ حول الاهتمام المتصاعد في الولايات المتحدة، خاصة فيما يتعلق بتطوير «الأخبار المحلية». ومن حين لآخر يصدر تقرير حولها وينشر على الموقع الرائد في تحليل الإعلام وتقاطعه مع التكنولوجيا «Media shift». أحالني أحد المقالات إلى مؤسسة مختصة بالحديث عن «الأخبار المحلية» بعنوان Lacalnewslab.org

«الناس جائعون للأخبار المحلية وتتبّع القضايا المحلية والنقاشات عن كثب»، هذه نتيجة استخلصها الصحفي جوش ستيرن عبر عمله اليومي، وكتبها في مقاله «ردم الفجوة في الأخبار المحلية»، وعززها تقرير نشره مركز الأبحاث «Pew» بإحصائية تخلص إلى أن قرابة «تسعة أعشار السكان يتابعون الأخبار المحلية عن كثب»، مما يدل على حيوية هذا الإعلام.

خدمة للمكان أم للمجتمعات؟

يُقصد بالصحافة المحلية عادة تغطية الأحداث والفعاليات في سياق محلي قد لا يكون مهماً لمحليين آخرين، ويطلق على الفئات المستهدفة في هذا السياق اسم «المجتمعات».. هذا ما قاله أستاذ الصحافة بجامعة ولاية أوريغون الأميركية داميان

وصال الشيخ، خلال إنجازها تقريرا عن مشاكل زراعة التمر في طاطا، جنوب المغرب.

رادكليف في مقاله «ثمانية اتجاهات رئيسية في الصحافة المحلية».

اختلف معه صاحب كتاب «الصحافة المحلية في عالم الديجيتال» بال غرايف ماكميلان وأطلق عليها تعريفاً مغايراً، وهو «الشعور بالمكان وفهمه»، وعلل بأنّ المجتمعات التي تشترك في خلفيات دينية أو إثنية أو اجتماعية معينة يمكن ألّا يحدّها مكان جغرافي محدد، كشبكة الأصدقاء الذين يتشاركون اهتمامات معينة، إلى أغلبية المجتمعات السياسية أو الدينية. ويقول بأن الشعور بالمكان وفهمه يختلف عن المفهوم الجماعي والتماسكي للمجتمع، بحيث لا يفترض تعريفه بأن الأفراد يمتلكون قيماً ووجهات نظر مشتركة لأنهم يقيمون في بقعة جغرافية معينة أو تربطهم علاقة به. بيد أن بحث «weP" خلص إلى أنه من الفرادة أن تمتلك المجتمعات أفكاراً مختلفة لما تريده من الأخبار المحلية، إذ لكل مدينة أولوية مختلفة حول المواضيع المراد تغطيتها، فالأخبار المحلية ليست مقاساً يناسب الجميع، وتظلّ بالمقابل «صوت الأخبار الوحيد في المجتمع»، أو كما تُعرف في المغرب باسم «صحافة القُرب»، فهي ترصد تغيرات المدن أو البلدان أو القرى وتأثرها بالهجرة والمناخ والتقلبات الاقتصادية والحروب وتبدل الثقافات والأحوال الاجتماعية.

مفاتيح يومية للأخبار المحلية

الحدث اليومي أساس هذا النوع من الصحافة. فقد يحدث أن يرصد أحدهم كيف تتصحر منطقة ما بفعل التغيرات المناخية، ويتابع تأثير المناخ على هجرة الإنسان والحيوان، وزحف الرمال ونتائج ذلك على المنطقة.. هي رصد يوميّ إذاً، متمهل وصبور.

يضع رادكليف سؤالاً مفتاحياً لهذا الحدث اليوميّ، ووفقه تسير طاحونة الأخبار فتجري المياه.. السؤال: «كيف يمكن لي كصحفي/ية أن أساعد المجتمع/الناس في حياتهم اليومية؟»، وهو ما يولد أسئلة جديدة وطرقاً للإبداع ويتناول القضايا التي تهم المواطن حسب الأولوية.

وبما أن التفاعل حقيقي في الاتجاهين بين الصحافة المحلية والجمهور، مما يعني مزيداً من المعلومات في ميدان الفنون والرياضة والقصص والاحتياجات الخاصة بالأفراد، أي تقديم إعلام خدماتي بالنهاية، لذلك تحتاج هذه المنافذ أو الوسائل إلى تقديم شيء مختلف من حيث المحتوى والمنظور والقيم الصحفية، لأنه لا يمكن العثور على جزء كبير من هذا المحتوى في مكان آخر؛ فما يحدث بمدينة أو منطقة في شمال المغرب لا يشبه ما يحدث في مدينة بالجنوب بسبب اختلاف اللهجات والثقافات.

وكلّما استطاع الصحفي أن يذهب أبعد وأعمق في تلك المناطق بما يهم القارئ ويضمن أن الجمهور بحاجة إلى أخباره ولا يمكنهم الحصول عليها من مكان آخر، ضِمن الاستمرارية والاستدامة لأعماله. وهذا يأتي بالاستماع الجيد للمجتمعات المحلية، وحرص الصحفيين على استكشاف أساليب مختلفة لحرفتهم، والحفاظ على الاستقلالية والنزاهة، ثم تسخير المنصات الرقمية لرواية قصصهم، واستخدام الفيديو ووسائل التواصل الاجتماعي لإشراك الجمهور ومشاركتهم الأخبار. يُقال بأن «دور الصحفي المشارك في القرن الـ21 ليس للإعلام فقط، ولكن لجلب القراء مباشرة في النقاش أو المحادثة".

فاكهة «التنين».. ما الغريب؟

رغم عيوبها وسطحيتها، يقول رادكليف إن الصحافة المحلية عمود إنارة يلتفت إليه الأفراد الذين هم أكثر دراية بشؤونهم المحلية وأكثر انخراطاً في مجتمعاتهم وسياساتها لكونها وسيلة الاتصال الوحيدة بين الطرفين.

تعرقلَ تطور الصحافة المحلية في مرحلة ليست بعيدة بسبب ظهور تقنيات وسلوكيات رقمية جديدة، إضافة إلى تقييد حرية التعبير في بلادنا العربية وقوانين الصحافة الإلكترونية المرتبط بعضها بالقانون الجنائي كما حدث مؤخراً في المغرب، فضلاً عن تحديات كبرى تتعلق باستمرارية الدعم واستقطاب الجمهور.

رغم ذلك شهدت بلاد عربية تجارب أحدثت فرقاً في المشهد الإعلامي كتجربة راديو «البلد» في عمّان، وتجارب مشابهة في فلسطين التي وظفت استراتيجيات التجريب واستيعاب التطورات لضمان الاستمرارية، وعلى غرارها أيضا تجارب لإذاعات تبث على الإنترنت ظهرت في المغرب وتستهدف مجتمعات خاصة، لكن ما زالت أوضاعها القانونية والمالية متضعضعة ومتفاوتة.

رُبّما تبدو الصحافة المحلية كشجرة فاكهة «التنين» الغريبة التي بدأ الناس يتذوّقونها ويطلبونها في المطاعم لغرابتها والفوائد التي تحملها، ويبقى أن نشجع العاملين على تقديمها بأشكال مغايرة، إبداعية في الذوق والشكل أكثر.

دور الإعلام المحلي أن يحكي قصص الناس في المدن اللامركزية. قرية أوريكة بجانب مدينة مراكش المغربية.
تصوير: وولفغانغ كالر - غيتي.

الصورة الناطقة في الإطار الصامت

علاء بدارنة

كلَّما اقتربتَ من الحدث أدركتَ جيدا تفاصيل ما يجري، وأصبحتَ قادرا على تحريك مشاعر الناس المتلقِّين لصورك رغم تجميدك حركة الصورة، فالصورة الصامتة بتكوينها يجب أن تكون متحركة بتأثيرها.

تكمنُ قوة الصورة الصحفية في اكتمال العناصر التي يبحث عنها المصور الصحفي، فكلما ازداد ارتباطها بالجمهور وبطبيعة الحدث، اكتسبت قوة أكبر وتأثيرا أعمق.

لا تختلف الصور الصحفية بمفهومها ومضمونها إذا كانت قادمة من مناطق النزاع والحروب، وتحمل مشاهد المعاناة ذاتها. يقول روبرت كابا الذي كان صاحب الفضل في انتشار التصوير الصحفي قبل أكثر من مئة عام: "إن لم تكن صورك قوية بما فيه الكفاية، فهذا يعني أنك لم تكن قريبا بما فيه الكفاية".. قُتل كابا بلُغمٍ أرضي لأنه كان الأقرب فيٍ تغطية آخر الحروب التي غطَّاها، فهذه النظرية في التصوير الصحفي صحيحة تماما، ولا يقصد كابا بالقرب فقط مسألتي المسافة والمكان، بل الأمر أعمق من ذلك، إذ على المصور الصحفي أن يكون قريبا بفكره ورؤيته، قريبا بمعلوماته.

التقطت هذه الصورة على المدخل الجنوبي لمدينة نابلس أثناء مظاهرة يوم الجمعة واحتفت بها وسائل إعلامية عالمية. تصوير: علاء بدارنة.

اليوم ورغم كل التطور التكنولوجي المصاحب لعالم التصوير، فإن المصور الناجح هو الذي يبحث عن الصورة الأقرب.. الصورة التي يراها بعينيه قبل عدسته، فكلما اقتربتَ من الحدث أدركتَ جيدا تفاصيل ما يجري، وأصبحتَ قادرا على تحريك مشاعر الناس المتلقين لصورك رغم تجميدك حركة الصورة، فالصورة الصامتة بتكوينها يجب أن تكون متحركة بتأثيرها.

عام 2017 شهدت فلسطين حدثا هاما كان محوره القدس، المدينة التي كانت العنوان الأبرز مرتين: الأولى عند إغلاق المسجد الأقصى فيما عُرف بقضية البوابات الإلكترونية، والثانية هي الأحداث الجارية حاليا فيما يخص اعتراف الرئيس الأميركي دونالد ترمب بالقدس عاصمة لإسرائيل، وهو ما أعاد الأحداث مجددا إلى الميدان.

نجد اليوم أهمية كبرى للصورة الصحفية القادمة من فلسطين، فما زال إعلان ترمب يثير جدلا واسعا في العالم، وما زالت الأحداث الجارية على الأرض تحتل العناوين الرئيسية في الأخبار، لذلك يحرص المصور الصحفي على البحث عن تفاصيل الصورة المطلوبة، سواء أكانت صورة مباشرة للأحداث اليومية أو تلك المتعلقة بما وراء الحدث.

ومع تدحرج الأحداث وتشابهها في الوقت نفسه من حيث تكوين المشهد في أي من المدن الفلسطينية التي تشهد أيام غضب، لا سيما أيام الجمع من كل أسبوع، يجد المصور الصحفي نفسه أمام مشاهد متكررة وسط أحداث كبيرة، ليكون أمام تحدي البحث عن الصورة الأكثر تأثيرا وتميزا.. الصورة التي لم يلتقطها من قبل.

صور التقطها المصور علاء بدارنة مكرِّسا نمطا خاصا في التصوير الصحفي، يربط فيه الإعلانات التجارية أو أي كلام مكتوب مع مجريات الأحداث.

في قراءة سريعة لمعظم الصور المنشورة عالميا منذ بدء الأحداث الحالية، يلاحظ قدرة المصور الصحفي الفلسطيني على عدم تكرار نفسه حتى وإن تشابهت الأحداث، فقد شهد الأسبوع الأول من بداية الأحداث انتشارا واسعا عبر كل الوسائل الإعلامية لمجموعة من الصور الصحفية التي صُنفت بأنها الأكثر تأثيرا، وظهرت بجلاء عبر تصنيفها كأفضل الصور الصحفية من قبل كبرى الصحف والمواقع العالمية.

ومن هذه الصور، صورة اعتقال الفتى الجنيدي في الخليل، وصورة اعتقال الشبان في مدخل مدينة البيرة من قبل وحدة من المستعربين، وصورة شاب ملثم يخرج من بين الدخان في نابلس، إضافة إلى صور قمع مظاهرات في باب العامود بالقدس، وغيرها الكثير. وكانت صحف ومواقع عالمية كبرى مثل الغارديان وواشنطن بوست والتايم قد اختارت بعضا من هذه الصور كأفضل صور صحفية نشرت لأحداث ذلك الأسبوع، مما يدل على قدرة المصور الصحفي الفلسطيني على فهم مجريات الأحداث وتكوين الصورة الصحفية ذات العناصر الإخبارية الجيدة وغير المكررة، رغم صعوبة التقاط الصور والمعيقات التي يتعرض لها المصورون الصحفيون من قبل الاحتلال الإسرائيلي.

الصورة الفوتغرافية بشكل عام ليست صورة صامتة، فهي ناطقة بكل معنى الكلمة، وهنا سأخصص حديثي للصورة التي لاقت انتشارا واسعا وهي صورة الشاب الملثم الذي يخرج من داخل منطقة يغطيها الدخان الأسود الممزوج بالغاز المدمع. التقطت هذه الصورة على المدخل الجنوبي لمدينة نابلس أثناء مظاهرة يوم الجمعة، وهي صورة متاحة باستمرار ومشهد يكاد يتكرر في الكثير من الأحداث، لكن

صور التقطها المصور علاء بدارنة مكرِّسا نمطا خاصا في التصوير الصحفي، يربط فيه الإعلانات التجارية أو أي كلام مكتوب مع مجريات الأحداث.

السؤال المطروح: لماذا حظيت هذه الصورة بكل هذا الاهتمام والنشر؟ وهل هي صورة صحفية لحظية أم تحتاج إلى قدرات تقنية عالية؟

هناك مسألتان متعلقتان بهذه الصورة، الأولى ترتبط بقدرات المصور على استغلال اللحظة أو توقع حدوثها والمتمثلة في خروج الملثم، والثانية مرتبطة بالضوء المتاح لحظة خروجه التي توافقت مع ظهور أشعة شمس من بين الغيوم.. من يتعامل جيدا مع الكاميرا يدرك تماما أن البحث عن هدف وسط دخان متحرك في ظروف ميدانية صعبة؛ أمر متشابك يحتاج إلى عنصري الصدفة وتوظيف الخبرة لإكمال المشهد.

على الصعيد الشخصي، أُدرك أنها صورة صحفية جيدة، وإن لم أكن أتوقع أنها ستحظى بكل هذا الاهتمام من النشر.. تابعتُ معظم المواقع المتخصصة بالتصوير، خاصة تلك التي اعتبرتها من أفضل صور ذلك اليوم أو صور الأسبوع، فاستوقفني موقع التايم في إنستغرام الذي اهتم بنشرها، ومن جملة التعليقات التي قرأتها، تعليق لمصور صحفي أميركي كتب قائلا «لو لم تكن هذه صورة صحفية، لكانت لوحة مرسومة بالفحم"، وهو محق في ذلك، إذ لو تأملنا الصورة سنكتشف أنها تظهر وكأنها التقطت بالأبيض والأسود رغم أنها صورة ملونة. تعليق آخر يقول «من الصعب أن تجد صورة تجعلك تعيش مشاعر متناقضة كما هو حال هذه الصورة التي جعلتني أفرح وأحزن، وأتأمل وأتألم، وأتساءل وأتفاءل»..

يقودني هذا إلى القول إن عنصر البساطة هو السبب.. كانت تلك الصورة وليدة اللحظة، ولو كانت اللحظة لها قياس فهو هنا صفر، فخروج الملثم كان في لحظة، ووقوعه داخل دائرة الضوء الساقط كان في لحظة، واختفاؤه أيضا كان في لحظة.

ومن بين التعليقات، كان هناك من يشكك في صحة الصورة من الناحية الفنية باعتبارها معدّلة باستخدام برنامج «الفوتوشوب»، رغم أن هذه الصورة تحديدا نُشرت كما خرجت من الكاميرا تماما.

صور التقطها المصور علاء بدارنة مكرِّسا نمطا خاصا في التصوير الصحفي، يربط فيه الإعلانات التجارية أو أي كلام مكتوب مع مجريات الأحداث.

كنت قد التقطتُ صورة عام 2004 قادتني لاحقا إلى البحث عن صور تشبهها، لأكرر المشهد أكثر من مرة ويصبح لديّ ما يمكن تسميته "نمطا خاصا" في التصوير الصحفي.. الصورة في 2004 كانت لطفل يلقي حجارة على آليات عسكرية وسط مدينة نابلس، تصادف مرورها من تحت جسر حديدي كُتب عليه «نابلس ترحب بكم".. توقفت مطولا عند هذه الصورة وقررت أن أبحث باستمرار عن مشاهد أستطيع من خلالها الربط بين الإعلانات التجارية أو أي كلام مكتوب، وبين مجريات الأحداث.

تكررت المشاهد في ذلك النطاق كثيرا، فقد عبرت سيارة رش المياه التي تطلق مياها كريهة الرائحة تجاه المتظاهرين، وتصادف عبورها من تحت إعلان تجاري يقول «أصل الانتعاش". وفي إعلان آخر يقول «أنتم الضمان»، وأمام اللوحة كان متظاهر يعيد قنبلة غاز مدمع باتجاه الجنود. وفي صورة أخرى شبان غاضبون أثناء مواجهات عنيفة تحت لوحة إعلانية تقول «زمن أول حول»، وغيرها الكثير.

لا توجد نظرية واحدة في التصوير الصحفي نستطيع أن نقول إنها تتحكم في عمل ومخرجات أي مصور، فالمشهد الذي أمامك هو من يتحكم في النتائج وأنت صاحب

دع الصورة تتحدث عن نفسها إذا كنت ترغب أن تذهب صورك إلى التاريخ. تصوير: علاء بدارنة.

من المهم جدا أن تكون صورك مخرجات حقيقية دون أدنى تدخل من طرفك في تشكيل المشهد. تصوير: علاء بدارنة

القرار بالضغط على زر التصوير والتحكم في العناصر التي ترغب لصورتك أن تحتويها. لكن من المهم جدا أن تكون صورك مخرجات حقيقية دون أدنى تدخل من طرفك في تشكيل المشهد.. هذا ما أسميه «المقتل» الذي يمكن أن ينهي مشوار أي مصور محترف، خاصة أننا نتحدث عن صور صحفية قادمة من قصص إنسانية في مجملها، فتدخّل المصور في صناعة أي صورة يُعتبر خطّا أحمر وغير مقبول.

ولا يعقل أن يساهم المصور في صناعة المشاعر أو ردود الفعل، فالصورة المؤثرة هي تلك التي يمكن أن تقرأها دون الحاجة إلى عنوان أو وصف.. دع الصورة تتحدث عن نفسها إذا كنت ترغب أن تذهب صورك إلى التاريخ.

كما علينا ألا نغفل مسألة تحرير واختيار الصور، وهي المرحلة الأخيرة التي يُنجزها المصور بعد العودة من مهمة تصوير، فيجد نفسه أمام عشرات الصور التي قد تتشابه في تكوينها وتفاصيلها، ويصعب عليه اختيار الأفضل من بينها. لا بد من الإشارة هنا إلى أن عملية الاختيار يجب أن تخضع لأسس محددة ولا تكون بطريقة عشوائية، فعلى المصور أن يحصر الصور الجيدة في ملف منفصل لتسهيل الاختيار، خاصة أن الحديث هنا عن صور صحفية والوقت عنصر مهم في عملية التحرير وتحميل الصور لجهة العمل..

لعل المرحلة الأولى الجدير اتباعها هي إلغاء الصور المكرَّرة، وحسم الأمر في الصور المنوي التعامل معها في المرحلة النهائية.

من بين أفضل الطرق، تقسيم الصور إلى محاور داخلية انطلاقا من طبيعة الحدث، على أن تُختار ثلاث صور كحدٍّ أقصى لكل محور كي يصبح اختيار صورة واحدة في النهاية أمرا هيِّناً لإرسالها إلى المحرّر المسؤول في جهة العمل، إذ يجب ألا تترك عملية الاختيار خارج إطار جهاز الحاسوب الخاص بك.. كن أنت صاحب القرار.

العالمُ مليء بالأحداث اليومية، عشرات المصورين في العالم يُغطُّون كل ما يجري على الأرض في مجالات السياسة والثقافة والرياضة وغيرها. فإذا كنت ترغب أن تكون الصور القادمة من منطقتك ضمن الصور المختارة والمنشورة، عليك أن تبحث دائما عن الصورة الناطقة داخل الإطار الصامت.

إذا كنت ترغب أن تكون الصور القادمة من منطقتك ضمن الصور المختارة والمنشورة، عليك أن تبحث دائما عن الصورة الناطقة داخل الإطار الصامت. تصوير: علاء بدارنة.